ثقوب زرقاء

ثقوب زرقاء

(رواية)

الخير شوار

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail . com

الهيئة الاستشارية للدار
أ . د. أحـمـد شـــوقـــي
أ. خـــــــالد فهـمـي
أ . د. فتـــح الله الشــيخ
أ . د. فيــصل يـــونـــس
أ . د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطـمة البــودي

الغلاف:

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: /٢٠١٣
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - -

ثقوب زرقاء

روايــة

الخير شوار

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشيءون الفنية

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك:

١-

أ- العنوان

رقم الإيداع / / ٢٠١٣

إهداء

إلى المختار بن مبارك.. كم اشتقت لقول كلمة "دادّا"..

واحد

"جريمة قتل بشعة في منطقة الطاحونتين، غرب مدينة الجزائر"، هو العنوان الذي صدر بصيغ مختلفة في كثير من الجرائد، التي راحت تتسابق في إعطاء التفاصيل، واتفق الجميع على أن الضحية رجل سنه يقترب من الأربعين، يبدو من ملامحه الخارجية أنه مجنون ومشرد، والأرجح أنه جاء من منطقة بعيدة غير معلومة، يكون قد قُتل شر قتلة بالسكين الذي كان مرميا عند جثته. وأما القاتل فهو مجهول، والكل يتساءل: من يقتل هذا المشرد المجنون بهذه الطريقة ولأية مصلحة نفّذ هذه الجريمة؟

إنه السؤال الذي حيّر الجميع، والذي دفعني للذهاب إلى مسرح الجريمة. اصطحبت أمين المصور، واتجهت إلى حي الطاحونتين، قرب

بولوغين. وفي جو بارد وممطر أحيانا، وصلنا إلى محيط المكان. نزلنا من السيارة واتجهنا راجلين، صوب تلك البناية التي تبدو عتيقة، من عدة طوابق، لكن حيطانها مثقوبة من كل جانب، وكانت مطوقة ببعض رجال الأمن وبعض الفضوليين، وكنا بحاجة إلى الكشف عن الهوية الصحفية تجنبا لأي منع من الاقتراب، وغير بعيد عن تلك البناية التي تكاد تسقط من كثرة التخريب الذي طال جدرانها، كان بعض الناس متحلقين غير بعيد عن رجال الأمن، وكان لا بد من طرح السؤال الفضولي: "هل حدثت جريمة القتل البشعة بالفعل؟ وأين جثة الضحية؟".

تضاربت أقوال الفضوليين المتجمعين، من قائل إن الضحية هو أحد أفراد جماعة مسلحة بدليل هندامه الرث ولحيته الشعثاء، ويبدو أنه قضى زمنا طويلا في الجبل، وسقط في مواجهة بينه وبين بعض زملائه الذين اقتحموا دارا قريبة من هناك و لم يتفقوا على كيفية اقتسام الغنيمة، فوقعت تلك المواجهة العنيفة التي انتهت بالقتل، وسرعان ما ترك زملاؤه الجثة هناك ولاذوا بالفرار. لكن هذا القول لم يقنع آخرين، وقال شاب يبدو من سكان منطقة قريبة من هناك، إن السر في البناية نفسها، وهي عبارة عن قصر قديم ومهجور ويعود إلى زمن الاحتلال الفرنسي، وكان في الأصل كما يعلم الجميع ديرا للراهبات وكان منعزلا عن المدينة قبل أن تتضخم الأخيرة بهذا الشكل وأصبح في أطرافها.

إنه الدير الذي بقي كذلك إلى أن ارتكبت فيه جريمة قتل، حيث يقال إن أحد الأشخاص المجهولين تسلل إلى هناك بسبب علاقة حب مع راهبة

كان يلتقيها خفية قبل أن يكتشف أمره وأمرها، ليلقى العاشقان مصيرا دمويا و لم تتحمل إحدى الراهبات التي اكتشفت الأمر وأقدمت على قتل الرجل والمرأة وهما نائمان في خلوتهما بعد أن قضى منها وطره، والراهبة التي أقدمت على ذلك الفعل بقيت في ذلك المكان مسمّرة كأن الروح ماتت فيها، وبقيت على تلك الحال إلى أن اكتشفت زميلاتها الأمر، و لم تتردد في الاعتراف بجريمتها، وقيل إنها قضت بقية حياتها في السجن وقيل أيضا إنها تمكنت من الهرب مع زميلاتها، وبقي الدير مهجورا، وحاول الكثير من الناس الاستيلاء عليه من أجل تحويله إلى ورشة للصناعة أو إلى بيت واسع، و لم يتمكن أحد من ذلك، فقد سكنت الأرواح القصر، وفي كل ليلة تتجسد الراهبة التي أقدمت على قتل العشيقين، كما يتجسد العاشقان في وضع آدم وحواء وتعاد الجريمة في كل ليلة وسط الأنين والصراخ الذي لا يمكن أن يتحمله أحد، بل إن بعض من حاول الاستيلاء على القصر أصيب ببعض نوبات الجنون.

حكايات كثيرة تبدو متناقضة، لكنها تلتقي عند نقطة واحدة مفادها أن القصر المهجور يسكنه الجن منذ سنين طويلة ويمنعون كل من اقترب منه متسببين للطامعين في امتلاكه في متاعب لا آخر لها، وعندما وُجدت تلك الجثة في تلك الحالة. وإن كانت الجريمة مروعة بالفعل إلا أنها لم تفاجئ الكثير من الناس، لكن البعض منهم لم يكن يصدّق يوما حكاية الجن تلك، وقال إنها مجرد إشاعة روجها بعض المسؤولين السابقين من أجل إبعاد الناس عنه ومن ثمة الاستلاء عليه، لكنه لم يستطع في النهاية تحقيق مراده وبقيت حكاية الجن تلك ترويها الأجيال المختلفة.

إنها الجريمة التي اتفق المتجمعون على بشاعتها بينما اختلفوا في الحديث عن أسبابها، وحتى ضحيتها الذي بقي مجهولا، وكل ما أجمعوا عليه لا يتعدى المعلومات الأولية التي نشرتها الصحف اليومية قبل يوم بشكل مقتضب جدا، فالضحية رجل مجهول، رث الثياب، وأشعث الشعر ويبدو في حوالي الأربعين من عمره، فقد الكثير من دمه وكان ذلك سببا في موتته نتيجة لضربات تلقاها بشكل بشع جدا باستعمال السكين الذي كان مرميا غير بعيد عن جثته.

"لكن أين الجثة يا ترى؟"

أسأل رجل الأمن الذي كان واقفا عند البناية المخربة من كل جانب، فيجيب بشكل آلي: "نُقلت مساء أمس إلى مستشفى القطار وقد أمر قاضي التحقيق بذلك بالاتفاق مع الطبيب الشرعي".

وكان عليّ التنقل رفقة المصور أمين إلى مستشفى القطار، وإلى غرفة حفظ الجثث تحديدا، بحثا عن صورة أكمل لهذه الجريمة التي شغلتني، لكن الأمر لم يكن سهلا. اضطر المصور لأن يخفي آلته وتسللنا في غير موعد الزيارة بحجة الذهاب إلى طبيب الاستعجالات، ولم يكن واردا الدخول بالصفة الصحفية، فالأمر يحتاج إلى تصريح مسبق من وزارة الصحة وعليك إن أردت الحصول على مثله انتظار أيام طويلة قبل أن تنسى القضية وفي أكثر الأحيان يبقى الطلب دون رد. ولم يكن ممكنا دخول غرفة حفظ الجثث التي كانت محاطة بعناصر من أمن المستشفى، وكنا نسأل بطرق ملتوية عن الجثة التي جيء بها من خراب القصر القديم

في منطقة الطاحونتين، لكن أقوال أعوان الأمن الداخلي وبعض أعوان الصحة كانت تبدو متناقضة ويغلب عليها نفي العلم بها، حتى كدت أيأس من الأمر لولا أن ممرضا أعاد إلى الأمل بالقول إن جثة القتيل موجودة بالفعل داخل غرفة الحفظ التي تخضع لرقابة شديدة والتحقيق يتم بجدية وبعض الشكوك تحيط بالعملية وتطرح أكثر من علامة استفهام وأهمها طريقة القتل البشعة التي يبدو أنها تمت بالسكين وبإصرار كبير حيث أن القتيل تلقى ضربات كثيرة في وجهه دون رحمة وبقي مدة معتبرة يقاوم وينزف إلى أن تغلب النزيف على الحياة.

هو بعض مما جاء في التقرير الأولي للأطباء كما أكد الممرض الذي لم تكن لي سابق معرفة به، لكنه أضاف أن كل شيء يبقى في إطار التكهن، في انتظار التقرير النهائي للطبيب الشرعي الذي من شأنه كشف ملابسات الجريمة وقد يحدث ذلك بعد تسليم الجثة لأهل الضحية إن كُشف عن هويته وتبين أن له أهلا وأقارب.

انخرطت في الموضوع وكأني أحد أطرافه، وأصبحت أداوم على الحضور إلى مستشفى القطّار منذ الصباح الباكر، مهملا شؤوني الخاصة، أنتظر ما يقوله الطبيب الشرعي. مر يومان دون جديد، وأعطيت الإشارة لدفن الجثة بعد أن أُخذت كل المعطيات الطبية، وجيء بمن يغسلها في ركن من غرفة حفظ الجثث مخصّص لذلك، واستغليت الفرصة لأسأل العامل المكلف الذي أنجز المهمة وهو يعمل لدى مصلحة تسيير مقابر الجزائر العاصمة وله خبرة في ذلك عن تفاصيل جسد القتيل وكيف كانت الضربة

القاتلة حسب رأيه، لكنه لم يجبني وقال لي إن أخلاقه تمنعه من فضح الميت الذي يجهل عنه كل شيء، وعند إصراري قال إنه تلقى ضربات في وجهه لكنه كان مذبوحا على مستوى الرقبة وقال إن الضربات التي تلقاها في وجهه كانت بشعة بالفعل إلى درجة أنها أحدثت ندوبا عميقة وبقعا زرقاء لم تنفع معها مواد حفظ الجثث، وأخذت أتخيل الصورة وتتضارب في ذهني الاحتمالات.

لم أجد شيئا أكتبه، فأرجأت كل ذلك إلى أن يظهر عنصر من شأنه أن يرسم كل ملامح الحكاية، لكن ذلك العنصر لم يظهر بعد مع ما كنت أعتقد أنه تعتيم من الجهات المختصة في التحقيق، لكني أدركت بعد ذلك أن تلك الجهات لا تمتلك بالفعل معلومات حتى تخفيها.

حان موعد دفن الجثة كما تقرر، وكنت أحد الحاضرين كأني من ذوي الميت. كان الانطلاق من مستشفى القطّار إلى المقبرة المجاورة في تلك الربوة التي تسمى أيضا "مقبرة القَطّار"، لكن الموكب كان صغيرا جدا تمثل في بعض عمال المستشفى وبعض من قادتهم الصدفة إلى المكان في ذلك الوقت، وإمام أشرف على مراسم الدفن وصلى بالمشيعين صلاة الجنازة وكان ينعت الميت بالمجهول تارة وبابن السبيل تارة أخرى، ليدعو له بالرحمة والمغفرة إن كان مسيئا في حياته، ثم يُشرع بالفعل في الدفن داخل القبر الذي حفره منذ الصباح الباكر عمّال متخصصون. ولحظة وضع الجثة في مكانها الأخير، باستعمال الأحزمة الجلدية وبالأيدي، كنت أحد من ساعد على ذلك، وكان الفضول يأخذني لأحدق في تفاصيل

الوجه المكشوف داخل الكفن الأبيض الذي تفوح منه رائحة الكافور. فبدا الوجه حليقا لكن مع بياض غير عاد للبشرة يوحي بأن عملية الحلق تمت داخل غرفة حفظ الجثث عند تغسيل الجثة وكان الشارب الكثيف يؤكد ذلك، لكن ما لفت انتباهي أكثر إضافة إلى الذبحات الواضحة التي خيطت هو تلك البقع الزرقاء الداكنة الواضحة في كامل الوجه.

ولسبب غريب كنت أحدق في تلك البقع التي تشبه الثقوب وتفكيري يغوص فيها، لكنني عدت إلى واقعي فجأة عندما بدأت الجثة تختفي تحت كتل الإسمنت الصماء التي تشبه الصخور والتي وضعت فوق الشق الذي ضم الجثة المتجهة إلى القبلة والوجه مكشوف دون بقية الجسد الملفوف داخل الثوب الأبيض الناصع والذي كانت تفوح منه رائحة الكافور. وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها وجه القتيل الغريب وقد طوى جثته التراب وبدأت الملامح النهائية للقبر الجديد تتشكل أمامي، ووضع الشاهدين الإسمنتيين على الجانبين، وكتب على أحدهما عبارة مثيرة هي "قبر رجل مجهول" وتفرق الناس في كل اتجاه، وغادرت المقبرة على أمل أن أكتب شيئا جديدا في تفاصيل الجريمة كما وعدت الزملاء في قاعة التحرير، لكنني وجدت نفسي شبه عاجز بسبب شح المعلومات، وكنت منهكا جدا عندما اقترحت كتابة موضوع في شكل روبورتاج في البيت، وفي خلوة الليل كنت أحاول تصوير كل التفاصيل التي كتبت بعض رؤوس أقلامها في أوراقي الصغيرة، لكن إحساسا غريبا شعرت به وأنا أعجز لأول مرة عن الكتابة رغم نجاح روبورتاجاتي السابقة التي

تناولت مواضيع أعقد وبمعلومات أكثر شحا، ووجدت نفسي أنغمس في تفاصيل الوجه الذي رأيته عند القبر، ورغم أني لا أشك في أني رأيته من قبل أو رأيت فيه شبها بأي شخص عرفته في حياتي، إلا أني وجدت نفسي مأخوذا إليه، غارقا في تفاصيل وجهه وتلك النقاط شديدة الزرقة، لكن الكاد أنهيت كتابة الروبورتاج الذي كان أقل من المتوقع بكثير رغم أنه أخذ مني وقتا طويلا، وربما سبب ذلك أني لم أستطع ترجمة المشاعر التي كنت أحسها لأحولها إلى كلمات.

وعندما أنهيت الكتابة أحسست بأني لم أقل شيئا، بل وما زلت ممتلئا بتلك الحكاية التي اكتنفتها الكثير من الأسئلة التي بقيت بدون إجابة.

صدر الروبورتاج في الصفحتين المركزيتين للجريدة مرفقا بصور لموقع الجريمة من توقيع زميلي أمين الذي رافقني في تلك الرحلة، وكان شاهدي في بعض مفاصل بحثي عن الحقيقة انطلاقا من خراب القصر المهجور بمنطقة الطاحونتين وانتهاء بمقبرة القطار، لقد كان قريبا مني يختلس بعض الصور و لم يكن واردا تصوير تفاصيل الجنازة بشكل علني.

و لم تنته حكايتي مع الموضوع عند ذلك الحد، بل كان الأمر مجرد بداية، وقد سكنتني صورة القتيل وهو يوارى داخل قبره، فأستحضر تفاصيل وجهه كأني شاهدتها مئات المرات مع أن الأمر في الحقيقة لم يستغرق إلا بعض الثواني.

لم أعد أهنأ بالنوم مثلما كنت في زمن سابق، وما إن أحاول الاستسلام له رغم التعب، حتى تعود تلك الصورة في أشكال مختلفة. مرة أرى

الرأس وحده مفصولا عن الجسد، لكنه يلاحقني وكأنه امتلك أجنحة، أسمع قهقهات تنبعث منه وتهديدا ووعيدا بكلمات نابية أحيانا، وأحيانا أخرى، أشعر بصاحب الوجه يوقظني من نومي ويلح في ذلك، وأراه في كامل تفاصيله حتى إذا نهضت مفزوعا من نومي اختفى من وجودي فأقتنع بعدها بأن الأمر مجرد وساوس، وفي كل الحالات فإن ما يميزه هي تلك الضربات بالسكين على مواضع مختلفة من وجهه والتي تحولت إلى بقع باللون الأزرق.

وكم كانت صدمتي كبيرة، عندما قرأت التقرير النهائي للطبيب الشرعي وقد صدر أياما بعد دفن الجثة، لقد أكد أن الأمر يتعلق بانتحار بطريقة بشعة، وبدا أن المنتحر لجأ إلى ضرب وجهه بالسكين في أماكن مختلفة، قبل أن يذبح نفسه ويموت نتيجة ذلك النزيف، وتبين أنه كان يشكو من اضطراب عقلي وربما بانفصام في الشخصية اعتقد من خلاله أنه بصدد مصارعة غيره لكنه أجهز على نفسه في النهاية.

إنه التقرير الذي نشرته بعض الصحف مقتضبا ولم ينتبه إليه إلا القلة من الناس بعد أن هدأت عاصفة الحدث عندما كان حديثا. وهي الثقوب التي أدخلتني تلك الدوّامة، فأصبحت من خلالها كمن أصابه مس، ولا أدري ماذا حدث في تلك الليلة، عندما استسلمت لغفوة بعد أرق شديد، لأدخل عالما لا أذكر من تفاصيله إلا تلك الرأس التي رأيتها عند القبر بكل تفاصيلها. اقترب الرأس مني وهو يقهقه واعتقدت أنه سيلتهمني، وكنت كالمكبل لا أقوى على فعل شيء، عوض أن تبلعني الرأس عن طريق الفم،

خرج شيء كالمخاط من إحدى تلك الثقوب الزرقاء وأمسك بي كمخلب أخطبوط فلم أستطع المقاومة ولا حتى الصراخ، وما إن بدأ جسدي بالكامل يدخل تلك الدوامة حتى صحوت مفزوعا من نومي لأجد العرق يغشى كياني شاعرا بالبرد الشديد.

إنها الحمى التي تسللت إلى عظامي وكم كانت قاسية معي وهي عادة ما تكون كذلك، وإنها الحالة التي أصبحت عليها ولا أدري إن أصبحت في الواقع أم داخل كابوس طويل والهذيان يبدو أنه يسيطر حتى على يقظتي دون أن أنسى تلك النقطة المحورية التي أصبح تفكيري يدور حولها. واستولت علي صورة القتيل الذي قيل إنه انتحر بتلك الطريقة البشعة، وغصت أكثر فأكثر في تلك الندوب الزرقاء التي في وجهه وقد تحولت إلى ما يشبه المخاط بلون غريب.

عندما نهضت في اليوم الموالي في ساعة مبكرة وجدت في ذاكرتي هذه التفاصيل، كأنها وليدة تلك الكوابيس أو كأن شخصا سردها عليّ دون أن أذكره، فأحسست برغبة في تفريغ الحكاية بتفاصيلها قبل أن تأخذني إلى المجهول.

إثنان

كان ذلك الوجه الفوسفوري أول ما رأى، وهو يجوس مكانا قصيا، ويرى ذلك اليوم باللون الأزرق، واليوم مرشح لأن يحمل نكبة ما حتى يبدأ عدّاد التاريخ من خلالها يحاول لملمة عقاربه والعودة إلى نقطة الصفر لتبدأ الحكاية من جديد.

فقد النهار أضواءه وراح يختزل في نقطة متناهية في الصغر، باللون الأزرق، وتشبه تلك النقطة إلى حد كبير الثقوب السوداء، لكنها بتدرج مختلف وهي مرشحة لانفجار لا أدري مدى عظمته، والرأس يحمل بعضا من تلك الثقوب التي تبعث صداعا غير طبيعي، وذلك الوجه يفقد براءته وراح يختزل في خطوطه سبل المتاهة، تشعبت حتى أصبحت كل الطرق تؤدي إلى بعضها وتلتقي عند نقطة تافهة.

وجد نفسه غارقا في دوامة حتى نسي تاريخ بداية العد، واستسلم لتفككٍ في تلافيف مخه بدأ يحس به مع الأيام، ورأى أنه دخل طورا من البلادة جعلته ينسى تلك التجاعيد والمتاهات التي أرهقته..

وجه ارتسم في مادته الرمادية أو البيضاء من النخاع الشوكي أو ما تبقى من البصلة السيسائية كنقطة متمادية في صغرها.. نقطة رأى من دون سبب أن لونها يميل إلى الزرقة، وسرعان ما وخزته تلك النقطة كإبرة حادة كاد يصرخ من خلالها بأعلى صوته ليتقيأ معدته وسائر أحشائه ويخرج ذلك الركام من العقد والذكريات المخزنة بطريقة مشفرة لم يجد سبيلا لفكها في أعماقه.. أحس بتلك الرغبة وهو يتلمس رأسه وكأنه يشكك في كونه مفخخا كسيارة وخاف من أن ينفجر فجأة فتخيل نفسه كذلك ورأسه في لمح من البصر يحدث دويا مهولا لتكتب عنه جرائد الصباح بالبنط العريض: **"رأس مفخخ يأتي على عشرة قتلى وواحد وثلاثين جريحا"**، وعناوين أخرى مشابهة لها تملأ بقية الجرائد مع صورة واحدة تقريبا، مكررة مستنسخة تعكس الدمار الهائل الذي أحدثه التفجير الغريب، ثم عاد ليحاول مسك رأسه بيدين مرتجفتين، لكن شجاعته خانته والرعب يمزقه من الداخل وقد نسي مؤقتا ذلك الأمر الذي أدخله في تلك المتاهة..

كتلة البلادة التي كان يشعر بها تغمره. بدأ يتزعزع وكأنه أمام حدث جلل قد يخلط كل شيء ويجعل في طريق المجهول وهو معصوب العينين، ومكبل اليدين من الخلف ويضرب بسياط تترك خطوطا حمراء على ظهره وخطوطا متدلية حمراء أخرى على الأرض.. تدفعه بقوة إلى الأمام

فقد يجد جدارا يصده وقد يجد هوة بلا قرار يسقط فيها بلا رجعة.. يصرخ ويصرخ، لكن الصوت يختنق في داخله ولا يقوى على ربط خيط تفكيره..

استعاد ذلك الوجه الفوسفوري الذي رآه في أول يومه واستعاد هاجس الخوف بوقوع مكروه كبير في ذلك اليوم، و لم يتمكن من بناء تفكير ليستسلم للانهيار الذي أصاب تلافيف عقله وهو يتلوى ذاهبا بمنعكس شرطي صوب تلك الجرائد المطروحة أرضا بالمكان المسمى ساحة الأقواس، ليمارس هوايته الغريبة التي دأب عليها منذ بداية حياته الجديدة تلك إن صح أن يسميها كذلك، والتي لا يدري في أية لحظة بدأت بالضبط ولا كيف بدأت، وتلاعبت صورة الوجه الفوسفوري في رأسه مع صورة عنوان الجريدة الملفت وسرعان ما ذهب تفكيره مع العنوان واضطربت الصور في رأسه الذي خاف من أن ينفجر في أية لحظة كأية عبوة ناسفة لا يدري مدى الدمار الذي سيلحقه بالمكان، وبدأ كمن يقرأ كتابا أو جريدة يومية ويستحضر المشاهد بين تلافيف مخه الذي يتوقع انفجاره بين الفينة والأخرى.

ربما هاجس الرأس المفخخة هو الذي جعله يتصور مدرسة ابتدائية وقد شهدت انفجارا غريبا، اعتقد البعض أنه يتعلق بعمل انتحاري استعملت فيه المتفجرات لكن التحقيق أذهل من قاموا به، فمصدر الانفجار لم يكن إلا طفلة كانت تدرس في السنة الثالثة ابتدائي، واسمها ريما، تخيل المشهد بكل تفاصيله كأنه يستحضره من الذاكرة الحية، هي ابنة أحد العاملين

بالسكة الحديدية، فقد تفجر رأسها بالكامل و لم يجدوا منه إلا شظايا مرمية على مقربة من الجثة و لم يتعرفوا عليها إلا من خلال لباسها الملطخ بالدم ومحفظتها الصغيرة القديمة و لم تكن الضحية الوحيدة في الانفجار فقد أصيبت زميلة لها بكسر خطير على مستوى الفخذ، في حين أصيب زميل آخر لها بجروح بالغة على مستوى الوجه. ولا يدري كيف تخيل كل تلك التفاصيل، ربما كان قد سمعها من بعض المتحلقين أمام بائع الجرائد، وجاءت تفاصيل الخبر أكثر دقة وقد أشيع أن الطفلة كانت تحمل متفجرات في محفظتها الصغيرة، وأن لها شقيقا كبيرا غريب الطباع كان يختفي بين الفينة والأخرى يعتقد أن له علاقة ما بتنظيمات مسلحة وذهبت أقاويل الناس بعيدا في هذا الباب، لكن التحقيق الأولي فنّد ذلك تماما وتبين أن مصدر التفجير هو رأس الطفلة الذي لم يكن يحتوي على أي شيء و لم يصب من الخارج بأي شيء وحملت الجثة إلى معهد باستور المركزي في العاصمة لدراسة هذه الحالة الغريبة بعد أن عجز الأطباء الشرعيون على المستوى المحلي في الإحاطة بالمشكلة، بل لم يزد تقرير خبراء معهد باستور الذي جاء متأخرا الحالة إلا غموضا، وقبل أن يأتي التقرير النهائي شهد الحي الشعبي نفسه المسمى باب الطريق حالة مشابهة، ففي يوم خميس كان السوق الشعبي يعج بالمتسوقين وهو الذي يقصده الناس من الأحياء المجاورة مع شهرته بالخضر والفواكه الجيدة والأسعار الميسورة للفقراء ومحدودي الدخل، وفجأة عمّ الهلع واصطدم الناس ببعضهم وأصبحت السلع مرمية على الأرض المليئة بالمياه والأوحال جراء الأمطار التي سقطت حديثا على المكان، فاستغل بعض المتطفلين الوضع في خطف

الخضر والفواكه بكميات في متناول اليدين، وبعضهم اعتدى على الباعة واستولى على أكياس النقود التي كانت عندهم، و لم يعرف الكثير ممن كانوا هناك مصدر الانفجار المدوي الذي سمعه أهل العمارات المجاورة، وانتشرت إشاعة بسرعة مفادها أن أحدهم وضع قنبلة ليلا في مكان بائع البطاطا والطماطم وكان يطمع في أن تحصد الكثير من الأرواح ساعة الازدحام، لكنها لم تفجّر إلا جسد التاجر الذي تمزق أشلاء و لم يعرفه بعض الذين لم يكونوا هناك إلا من ملابسه. ولما وجدوا الجثة بلا رأس قيل إن القنبلة انفجرت عليه عندما وضع رأسه أسفل تلك الطاولة التي كانت فوقها كميات البطاطا والطماطم، لكن جسد التاجر الذي وجدوه دون رأس كانت بقاياه مرمية في أماكن متفرقة وسط سيل من الدماء وهو الأمر الذي أعاد أذهان البعض إلى ما حدث قبل أيام مع الطفلة الصغيرة عندما انفجر رأسها فجأة بدون أي مسبب مادي خارجي، و لم يشأ من راودهم هذا التفكير تصديق خواطرهم، وما زاد في تأكيد تلك الوساوس هو عدم وجود أي بقايا قنبلة أو متفجرات من أي نوع، وبدأ الكثير من الناس يتحسس رأسه والرعب يكاد يقتله وهو يتوقع أن ينفجر في أية لحظة.

أخذ يتحسس رأسه ويشعر بشقوق تتصدع، نقطة زرقاء ترتسم في عمقه، يحسها صغيرة جدا وسرعان ما تكبر وتبتلع ما تجد أمامها، بل لها جاذبية غريبة تحولها إلى ثقب كثيف لا يعلم كيف تكون نهايته.. أحلامه تستوي كخطوط متداعية، أقلام رصاص ملونة منزوعة الرؤوس تتكسر تحت أرجل الأطفال وهم يصرخون ومرعوبين مما سيأتي، ربما يكون انفجارا مدويا حدث في الشارع المقابل، والأرواح تكاد تخرج وسحابة

بلون الملاءة تكبر وتكبر، ثم يجذبها الثقب الأزرق ليحدث صفيرا في الذاكرة المتداعية، ويد ترتجف كأنها مصابة بالتيتانوس تمتد إلى الجبهة لتجدها في حالة غليان، يحاول إطلاق صرخة مدوية، ليشعر بألم حاد في حنجرته كأن قوة تدخلت لتمزق حباله الصوتية التي يكاد يراها أمامه ممزقة ويبقى بلا صوت وهو الذي بلا ذاكرة، منذ أن وجد نفسه على هامش هذه المدينة الكبيرة التي يقرأ يوميا في لوحات طرقها أسماء لا توحي إليه بأي شيء، وينكمش على ذاته والصور تضطرب عنده وهو يمسك بالرأس مشبها ذلك التاجر الذي تفجر رأسه في سوق الخضر والفواكه كأنه حشي بالمتفجرات التي تستعمل في العمليات الانتحارية التي أصبحت موضة هذا الزمن الجديد.

يتحسس بكلتا يديه وجهه كأنه يكتشف ذاته لأول مرة، ويتأمل يديه بحثا عن شيء لا يعرفه، فقد يجد أثرا قديما يذكّره بحادثة ويكون مفتاحا لإعادة قراءة نفسه، وعندما يجد ندبة يغوص فيها كأنه يدخل واديا عميقا، ويكاد يفقد توازن رجليه وهو يتأهب لدخول ذلك الوادي متوقعا أن يجد جماعة من السكارى الذين هربوا من المجتمع وانزووا في ذلك الهامش البعيد، يخافهم رعاة المواشي كأنهم وحوش وهم بدورهم يخافون من أي طارئ يفضحهم داخل مجتمعهم الذي لفظهم ولا يرحم تصرفاتهم، أو يجد ذئبا أو كلبا مسعورا يمزق جسده ويتركه ينتظر موتا في أبشع وأرذل صورته أو يجد ضبعا من الضباع التي تنزل من مخابئها ليلا تفترس البقر والغنم وتترك أصحابها يندبون حظوظهم التعيسة ويجرون وسط العتمة وراء أثر ذلك الضبع الذي لا يترك أثره بارزا إلا في جثث الأنعام التي يفتك

بها، وأخذ ينزل الوادي وهو يتثبت موضع قدميه بشدة، ويرقب حذاءه البني الذي يقاوم التلف، ثم يرفع رأسه ليفاجأ بوجه فوسفوري أعاده مرة أخرى إلى بداية يومه هذا عندما رآه وهو يبحث بين واجهات الجرائد المطروحة على الأرض، تشتت تفكيره بين نسختين لوجه واحد، وعاد مرة أخرى إلى العنوان الصارخ الذي ملأ الصفحة الأولى لجريدة لم يقرأ اسمها: "رأس مفخخ يأتي على عشرة قتلى وواحد وثلاثين جريحا".

استعاد طيف التاجر الذي أشيع بأنه راح ضحية قنبلة موقوتة وضعت تحت طاولته في السوق، ولم يعثر المحققون على شيء من هذا، وبينما الناس مشغولون بذلك اللغز الأقرب إلى الكابوس اهتز الحي المجاور بتفجير مرعب حدث داخل مسجد وقت صلاة الظهر، نهض الإمام لإتمام الركعة الرابعة لكن أذنيه وآذان المصلين اهتزت على وقع انفجار ضخم فقد الكل خشوعهم نتيجته، فاضطر الإمام للتسليم وقطع الصلاة وقد سمع كلاما فهم منه أن المأمومين لم يستطيعوا إتمام الصلاة معه لهول ما رأوا وغاب عن أذهانهم ما حدث قبل أيام مع تاجر الخضر الذي انفجر رأسه والطفلة التي انفجر رأسها هي الأخرى قبله، ووجد الإمام وكان في حالة رعب لم يقو نتيجتها على الالتفات وراءه إلا بصعوبة بالغة جموع المصلين وهم يحوقلون ويستغفرون الله وبعضهم يبكي، متحلقين أمام جثة بلا رأس وجثة لشيخ مات على الفور وشاب أصيب بجروح بليغة على مستوى ذراعه الأيمن وكان يبكي كالطفل الصغير.

بدأ يمسك شعره كأنه على وشك الانفجار وسرعان ما لمح بين أطياف

المصلين المتحلقين أمام ضحايا الانفجار الذين تخيلهم ذلك الوجه الفوسفوري الذي كان أول ما رآه في ذلك الصباح وتحوّل لون يومه إلى الأزرق متراوحا بين السماوي والنيلي في أقصى قتامته، و لم يتمالك نفسه وأخذ ينتف شعر رأسه حتى كاد يقتلع الفروة بما فيها ليبقى عظم الجمجمة عاريا، وكان ذلك على وقع صراخ حاد وهيستيريا أصيب بها وهو منزو في مغارة قاتمة هي أطلال بناية على شاطئ البحر عند حافة مدينة كبيرة كما تبدو.

البناية مثقوبة من كل جانب كانت بيتا للراهبات قبل أن تهجر وتتعرض جوانبها للتخريب، ينتف شعره ويشعر برائحة تزكم أنفه، خليط من السمك المتعفن وفضلات البشر والفئران الميتة، يكاد يصاب بالصرع وقد انفتحت خياشيمه فجأة وكاد ينسى حاسة الشم التي تعطلت لوقت لا يذكر مدته، وبيد مرتجفة يمسك بنتف شعر الرأس ثم يحدق فيها ليتركها في مهب الريح يأخذها إلى حيث الشاطئ أو حيث المدينة التي لا تشعر بوجوده وتغرق في ممارسة الطقوس الخفية التي اعتادت عليها منذ قرون، وسرعان ما يقلب كفيه، و لم يكن يدري كيف تنقل من ذلك المكان حيث تباع الجرائد اليومية والأسبوعية مطروحة على الأرض إذ يذهب صباح كل يوم متمتعا بممارسة هوايته اليومية حينما يقرأ العناوين الرئيسية للجرائد ويقارن فيما بينها دون أن يشتري واحدة منها وكثيرا ما كان يطرده بائع الجرائد عندما يجده مبالغا في الوقوف بملابسه الرثة المتسخة وشعره الأشعث، ويحار البعض كيف لذلك الشخص الغريب الأقرب في شكله إلى المجانين يستطيع قراءة تلك الجمل الطويلة ويسأله بعضهم أين

تعلم القراءة فيفكر في ذلك لكنه لا يجد جوابا وهو لا يعرف شيئا عن تلك الذات الغريبة التي يكاد يصدق بأنها ولدت في ذلك اليوم كأنه لا يمتلك ماضيا ولا يذهب تفكيره إلى المستقبل الذي يبقى متذبذبا بين صور لا يدري إن كانت تنبعث من ذاكرته المشوشة أو من مخيلته المضطربة، وشعر بحالة برد شديدة وهو يرى بين ثقوب تلك البناية التي تشبه بناية دمرتها دبابات الحرب، أضواء المدينة التي تكاد لا تنتهي، ومع الأضواء كان يفكر في البيوت التي تقع وراءها، ويتصور مئات الآلاف من العلاقات الإنسانية، في تلك اللحظة تلتقي الكثير من الأجساد الإنسانية وتلتحم حبا أو غصبا، وتتلذذ أجساد بتلك اللقاءات وتتألم أخرى، وتتشكل أجنة عند لقاء نطفة ببويضة وتتحدد الخريطة الوراثية للجنين بين آلاف الآلاف من الاحتمالات، وتبيت أجساد ملتحمة بعضها ببعض غير شاعرة بحالة الطقس الباردة جدا خارج تلك البنايات التي تقع تحت أضواء الشوارع التي يراها من بعيد نقاطا صفراء يحدق فيها وهو يغالب البرد، ومن شدة تحديقه فيها تتحول إلى ما يشبه الثقوب الزرقاء التي سكنت خياله في ذلك الوقت وسيطرت على تفكيره، وسرعان ما تستعيد تلك البنايات في خياله شكلها الأول، وتستحيل بعدها إلى لون شفاف يرى من ورائه أسرارها، ويرى آلاف الأجساد الملتهبة في حالة التحام في مشهد يشعره باللذة أحيانا وبالقرف والاشمئزاز مرة أخرى، وسرعان ما يشعر بتيار البرد يلدغه من الداخل ويحاول نسيان ذلك المشهد الذي أصبح يسيطر عليه كثيرا ويختصر من خلاله وجود المباني تلك التي حلم بأن يمتلك واحدة منها كأي مخلوق من تلك المخلوقات.

تعود الأجساد الملتهبة في ذلك الجو البارد تسيطر عليه وهي تلتحم مرة وتنفصل مرة أخرى ويشعر من خلالها بروائح إفرازات الأجساد من أماكن مختلفة وهي تعيده إلى تقززه الأول، فيحاول أن ينسى الأمر ليلتفت إلى الناحية الأخرى حيث الأمواج المتلاطمة التي لا تمل من الاصطدام بالصخور الضخمة دون أن تجرؤ على زعزعتها، ولئن كان المشهد الأول يشعره أحيانا بالدفء فإن المشهد الجديد يزيده برودة حد التجمد. يذهب ببصره بعيدا في تلك الجهة، ويحدق في الأضواء البعيدة التي تبدو خافتة، هي أضواء البواخر البحرية الكبيرة وقوارب الصادين الصغيرة، ويستطيع أن يفرق بينها بسهولة، ويفكر في المشهد وتناقضاته، والبرد يكاد يجمد تفكيره.

هنا متعة ولهو ودفئ وانطلاق مجنون وأجساد ملتهبة متلاحمة، وهناك أجسام تكاد تتجمد تحمل شبكة متداعية تريد الإلقاء بها في اللحظة المناسبة، لعلها تمتلئ سردينا يملأ السوق الصباحي ليوم مقبل، ويكاد يسمع البائع المقبل لذلك السردين الموزع في الماء قبل أن يجمعه قدره في تلك الشبكة الصغيرة وينقل على متن ذلك القارب الذي تكاد الأمواج تبتلعه: "سردين.. سردين"، ويغرق مرة أخرى في تفاصيل السوق اليومي، ويلتفت مرة أخرى إلى الاتجاه المعاكس ويستحضر روائح الافرازات العفنة التي تكاد تخنقه، ويتخيل تلك الإفرازات في شكل موج أصفر كبير يكاد يغمر تلك المباني بأضوائها، ويكاد يهرب إلى الاتجاه المعاكس ليغرق في البحر والحال يكاد يتجمد، لكن تلك الإفرازات تتحد مع ماء البحر الذي يواجهه، ويشعر نفسه غارقا والسيول تعبث به وتكاد تقذفه في القاع وهي

تجرف معها تلك الاجساد التي لا يشملها عد بين ذكور وإناث كانت قبل قليل ملتحمة تعيش سكرة الالتحام قبل أن يحدث لها ما حدث وتصبح في مهب الإفرازات التي كانت ناتجة عن ذلك الالتحام.

يكاد يهرب من السائل الأصفر اللزج إلى الماء الأسود الذي يكاد يتجمد، وهو يصرخ لكن الصوت يختنق في داخله، ويستعيد صوت وصورة ذلك البائس في السوق وهو يصيح "سردين.. سردين" ويكاد يقلده دون أن يستطيع إطلاق صوته وهو يرى سردينا يتعملق أمامه حتى أصبح في حجم الدلفين، ثم يستعير شكل القرش بأسنانه المنشارية الشرسة يراه يقهقه وهو يطارده ويصرح مثل البائع في السوق "سردين.. سردين"، ويزداد صراخ تلك الأشكال التي تتحول من القرش إلى الدلفين إلى السردين إلى أشكال أخرى وتحاول أن تحيط بجسده الذي يصارع الغرق.

رغبة الصراخ تتضاعف في داخله، فيشعر مرة أخرى بأن الصوت يختنق في داخله، ويشعر بالماء البارد يبلل جسده المنهك ولا يجد ما يستر به نفسه إلا ثيابه الرثة، وعندها ينتبه إلى أن المطر يسيل بغزارة في ليلة شتوية وهو يبتعد بعض الشيء عن البناية المخربة التي كان عندها، والظلام الدامس يصنع المشهد إضافة إلى الأضواء البعيدة التي تشير إلى المدينة النائمة أو الساهرة تحت أضوائها، والأمواج التي تشعر بأن البحر يريد الهروب كلية إلى اليابسة. فيكاد يسقط أرضا وجسده المنهك أصلا أثقلته السيول وأثوابه الرثة التي لا يذكر متى وكيف لبسها أول مرة تكاد تسقط كلية من على الجسد المنهك، ويجد خطواته تخونه فيجرها بتثاقل

حتى يكاد يزحف على بطنه وهو يعود إلى تلك البناية الغريبة التي وجد نفسه عندها منذ لا يدري من الزمان، ويشعر أحيانا أنه وجد على تلك الحال منذ الأزل وسيبقى كذلك إلى الأبد، ويشعر بأنه قطع الأمتار القليلة بين العراء الذي كان فيه عندما هطل شلال المطر عند شاطئ البحر الهائج والهيكل الخراب ذاك في مدة قد تجاوزت السنين الطويلة، وفي كل خطوة ثقيلة أو انسحاب على البرك المائية الباردة يطارده هاجس حتى ينسى حاله ذاك ويمسك رأسه الذي يخشى من أن ينفجر في أية لحظة.

وتتعاقب الصور إلى درجة التزاحم في رأسه ثم تغيب وتترك الفضاء للسواد، وكأن تلك الأضواء التي كانت تؤثث الليل البارد قد انطفأت فجأة واستسلمت الأجساد الملتهبة التي كانت تختبئ تحتها إلى النوم العميق ولا يجرؤ أحد على التحرك أو مغادرة المكان خوفا من البرد الذي في الخارج، ووحده على ما يبدو ذلك الجسد يعاني البرد والعتمة والتيه دون الانتباه إلى معالم بين بناية خربة وشاطئ يحيل إلى بحر عميق تتعاقب الأمواج التي تشكل طبقاته وتضرب الصخور في حركة سيزيفية، فلا ينتبه لذلك الأمر إذ لم يعد له أي مجال للتفكير في أي شيء.

لا يدري كم من الوقت مر عندما بدأت مخيلته تعود إلى التشكل من جديد دون أن يفلح في تنشيط ذاكرته البعيدة، واجدا نفسه وسط تلك العتمة التي تكسرها إلا بعض الأضواء الخافتة من جهة البحر، والكثير من الأضواء البعيدة التي تصنع ملامح مدينة شاطئية تمارس طقوس ليلها الشتوي الطويل مثلما تفعل دوما، وعندما يستعيد شيئا من قوته يحاول

العودة إلى تلك البناية المخربة من كل جانب كأنها أطلال قصر ذي طوابق متعددة، كوشم في يد عجوزل تسعينية يحكي قصة جسد غض كانت له مغامراته الكثيرة قبل أن يحال إلى ذلك المآل. وعندما استعاد بعضا من ذاكرته القريبة، استحضر ذلك الوجه الذي تفاجأ برؤيته والذي أحاله إلى شعور غريب، مزيج من الحيرة والدهشة والغضب والحقد، دون أن يحدد سر ذلك ولا من هو صاحب ذلك الوجه الذي يتراوح بين وداعة الأطفال ووحشية آكلي لحوم البشر، وفي دجى الظلام الدامس، استعاد تفاصيل ذلك الوجه بكل تفاصيله ككاميرا رقمية عالية الجودة ترصد حتى تفاصيل بثور الوجه المتناهية في الصغر التي تفضح صاحبها مهما كانت أناقته واهتمامه بنعومة بشرته، وأخذ يحدق في تلك التفاصيل وباطنه كالقدر يغلي وتكاد تلك المشاعر المتناقضة تقضي على البقية الباقية من عقله، وكأنه في واحدة نهار يوم قائظ مشبع بضوء وقوة الشمس، وانعكست تلك الأحاسيس على حرارة جسده المنهك، وتراوح بين الإحساس بحرارة غير عادية لا تعكس محيطه وبرودة شديدة قد تفوق درجة البرودة التي كان عليها الجو ساعتها، ومن شدة إحساسه باقترابه من ملامح ذلك الوجه يكاد يلمسه ولسبب غريب يسرع تفكيره في أمور شتى ولا يشعر إلا بالذاكرة القريبة تشتغل وهي أقرب إلى الهواجس والتصورات منها إلى خبرات سابقة في هذه الحياة التي لا يكاد يعرف عنها إلا تلك الصور والأحاسيس الآنية، وتضطرب الصور في أعماقه ولا يعيده إلى تلك الحالة إلا الشعور بالبرد القاتل الذي يسكن نخاع عظامه ويكاد يفجرها من الداخل.

تزداد حدة البرد الذي يسكن العظام ويكاد يأكلها من الداخل إلى

درجة يحس به يتحول إلى ما يشبه سم الأفعى الذي استولى على كل كيانه ليقتله ببطء شديد، وينتقل ذلك السم إلى مؤخرة دماغه إلى درجة يكاد يجمده، لكن المخ يأبى التجمد في هذه اللحظة وهو يشبه آلة التحكم عن بعد في جهاز الكتروني أصيب نظامه بعطب، أو تحكم في شاشة تلفزيون تبحث عن أية صورة لأية محطة دون جدوى، ويأبى دماغه الاستسلام لليأس مكتفيا باستحضار الذاكرة القريبة التي تعيد له ذلك الوجه الذي رآه فجأة ثم اختفى وسرعان ما تحول إلى كابوس يطارده في نومه ويقظته.

وفي لحظة سمع أصواتا وأنينا هي إلى الحلم أو الكابوس أقرب منها إلى الحقيقة، وشعر بأنه يستمع لذلك لأول مرة منذ مدة لا يعلمها.. كان صوت المطر الغزير وصفير الرياح يشوش على مصدر الأصوات والأنين حتى لا يكاد يتبينه وظن أن ذلك من أوهام يقظته المضطربة، وفي اللحظة التي كاد ينسى ذلك الذي ظنه وهما، هدأت الريح قليلا وزاد من انتباهه..

الأصوات تكاد تكون واضحة تماما ولو أن اللغة بدت غامضة و لم يلتقط منها ولا كلمة مفتاحية، ونسي أمر البلل الذي كاد يقضي على ما تبقى من ثيابه البالية والبرد الشديد الذي ينخر عظامه من الداخل حتى كاد يأكلها، وحاول جهده التركيز من أجل استراق بعض الكلمات ليربطها ببعض علها تكون مفتاحا لمعرفة صاحب أو أصحاب تلك الأصوات التي تتحول مما يشبه الهمس إلى أنين، وبالكاد تمكن من القبض على بصمة صوتية أو هكذا تخيل، وشعر بارتباك كبير وبسائل مرّ في فمه كأنه العلقم أو السم، وارتعشت أعصاب مؤخرة رأسه وانقبضت فجأة حتى كادت كل

حواسه تتعطل وشعر معها أنه يغيب عن الوعي أو هكذا تخيل، و لم يتمكن من استعادة ما يشبه وعيه الأول إلا بصعوبة، وعندما تمكن من ذلك كانت تلك الأصوات الهامسة قد سكتت وكأن أصحابها قد غادروا المكان، وقد مرّ على الأمر الأول بعض الساعة أو بعض ليلة لا تكاد تنتهي.

كان يحث منذ أن وجد نفسه على تلك الحالة بدون هوية ولا ذاكرة وأحيانا بلا مخيلة، عن شيء يربطه بذلك الوجه الفوسفوري الذي رآه في بداية يومه، لكنه لم ينجح في النهاية، وازداد حيرة عندما تمكن في لحظة صغيرة من القبض على تلك البصمة الصوتية التي سمعها في هذيانه أو واقعه أو في منامه، لا يدري بالضبط، وتشتت تفكيره بين ملامح الوجه الفوسفوري الذي رآه وملامح الصوت الذي انفلت منه في لحظة القبض المفاجئة، وشعر بحالة من الجوع تكاد تمزق أمعاءه، وبحركة في الظلام استطاع الوصول إلى الكيس الذي كان يحمله في النهار ووجد قطعة كبيرة من الخبز كان قد أخذها من مخبزة، وكانت القطعة تلك باردة تميل إلى التجمد ومبللة وشعر بتناقض في رغبته بين جوع يكاد يمزق الأمعاء وحالة كبيرة لفقدان الشهية، ومعها أخذ يدس اللقمة في فمه لكنها لا تكاد تتجاوز الحلق، فأجبر نفسه على قضم بعض ما كان عنده. و لم يشعر بأي طعم للخبز الذي يكاد يتحول من شدة التجمد ثم البلل إلى شيء آخر تماما، ومع ذلك وجد في نفسه رغبة في التهام تلك القطعة رغم الألم الذي كان يشعر به فيما تبقى من أسنانه التي لا يعلم متى رآها في المرآة للمرة الأولى.

و لم يكد يكمل تلك القطعة مع صعوبة قضمها البالغة والطعم غير المحبب الذي بدأ يشعر به شيئا فشيئا، حتى استعاد سمعه تلك الأصوات التي سمعها منذ قليل، إنها أصوات تقترب منه ثم تبتعد، لكنه اقتنع أنها قادمة من داخل تلك البناية التي أجبرته الظروف على التكوم عندها وهو تحت رحمة المطر في هذا الجو الذي لا يحتمل من البرد غير بعيد عن شاطئ البحر، الذي لم يعد يراه في هذه الساعة لكنه يسمع أمواجه المتلاطمة التي تكاد تقتحم عليه خلوته تلك.

شعر بقوة غير عادية في جسده الذي كان متهالكا منذ قليل، وتحسس بكفه بعض أطرافه، ثم تحولت الكف إلى قبضة، كأنه يمسك من خلالها بشيء ثمين يقاتل من أجل امتلاكه. وسرعان، ما فتح يده، وهو يرى ذلك الخراب يتحول إلى شيء آخر، كأنه عمارة عامرة بالناس، مثل تلك التي يراها من بعيد أو يكاد يراها. وتصارعت في داخله مشاعر الخوف ومشاعر الفضول لمعرفة ما يحصل من حوله، وتخيّل نفسه مالكا لذلك المبنى الذي أصبح في رمش من العين قصرا مثل بعض القصور التي لا يكاد يذكر متى رآها وكيف رآها. لم يتمالك نفسه من هول الدهشة وهو لا يعلم إن كان في عالم الحقيقة أم في الأحلام أم في عالم آخر لا يعرف معالمه، وهل ما كان يعيشه قبل قليل من هذا العالم أو ذاك؟ وقد تحول في لمح من البصر من طور إلى آخر وتغيّر كل شيء من حوله دون أن يتغير المكان إلا في تفاصيله، و لم يدر إن كان في الزمن نفسه الذي عاشه قبل قليل أم سافر من عصر إلى آخر وقد نام طويلا دون أن يشعر وهل سفره هذا كان نحو المستقبل أم نحو ماض سحيق؟

كانت الأضواء مختلفة الألوان والأحجام، وكان يصعد السلالم المفروشة بأبسطة راقية، وهو منتصب القامة، كأنه ملك من الملوك الأسطوريين، وبشكل مفاجئ رأى القصر ذاك يترمم ويزداد بهاء كما لم يره من قبل، وهل ذلك الخراب الذي أقام عنده مدة لا يعرف مداها عند ذلك الشاطئ، غير بعيد عن مدينة صاخبة هو في الحقيقة قصر؟ لم ينتظر جوابا يأتيه من داخله واستمر في المشي نحو الطوابق العليا، لكن القصر الذي كان تحول بشكل مفاجئ وهو يصعد سلالمه العليا إلى مجرد بناية عتيقة، تنبعث منها رائحة دغدغت عبثا ذاكرته، ومع شعوره بالبرد بعض الشيء، حافظ على تماسكه وهو يتقدم ببطء شديد لكن بخطوات متزنة نحو مصدر الأصوات المتناغمة التي أصبح يسمعها بوضوح أكبر كلما تقدم منها. و لم يصدق عينيه عندما رأى مجموعة من النسوة في أعمار مختلفة وفي أزياء متشابهة يجلسن متحلقات وهن يرددن أناشيد أو ما شابه ذلك وبلغة لم يفهم منها كلمة واحدة.

كانت النسوة يرتدين ألبسة بيضاء طويلة، ويضعن خمر طويلة على رؤوسهن، ورغم أنه تنحنح ثم سعل بقوة من أجل أن ينتبهن لوجوده إلا أنهن استمرين في أداء تلك الأهازيج الجماعية وبأصوات تقترب من الملائكية. في البداية تكوّن لديه انطباع أن المتجمعات كلهن متشابهات حد التطابق ومع مرور الوقت بدأ يكتشف الفروق بين هذه وتلك، ووجد أعمارهن متفاوتة، بين شابة تبدو في العشرينات من عمرها وامرأة تقترب من سن الستين وما بين ذلك، ولفت انتباهه إحداهن كانت تبدو شقراء من عينيها الزرقاوين والخصلة التي كانت تنفلت من الخمار الذي

أرادته صارما والتي تمكن من رؤيتها أو تهيأ له ذلك مع أن الوقت كان ليلا والإضاءة لم تكن بالقوة التي تمكنه من ذلك.

توقع أن يتفرق الجمع فور أن تنتبه إلى وجوده أولى المتجمعات أو على الأقل يتوقفن عن الإنشاد، فيبادرن بشيء ما مثل فض الحلقة أو التكلم معه هو الذي اقتحم عليهن جلستهن المغلقة، لكن الوقت بدأ يتقدم دون أن يحدث واحد من الاحتمالات التي توقعها.

ومع مرور الوقت بدأ ينسى الجمع، وينصب اهتمامه على الشابة الشقراء ذات العينين الزرقاوين، وخطر في ذهنه أن يناديها باسم "وسيلة" وهو شبه مقتنع بأن اسمها كذلك، ورغم أن هذا الاسم عربي، إلا أن تلك الفتاة مثل الأخريات لا تبدو عربية، إنهن من عرق آخر لا يعرفه، وهن يتكلمن بلسان لم يستطع فك كلمة منه مع أنه يحسن العربية وأشياء من الامازيغية ومن الفرنسية.

حاول أن يستعمل بعض العبارات الفرنسية التي يحسنها لعله يضفر بانتباه تلك التي أسماها وسيلة إلا أن الكلمات كانت تموت في لسانه ولا ينطلق منها حرفا واحدا.

ذهب بخياله بعيدا فتخيل نفسه مع وسيلة تلك في مكان مختلف تماما. كانت زرقة السماء وخضرة العشب تصنعان جوا مثاليا، وكانت وسيلة تجري وتجري وكان هو يجري وراءها ولا يحس بأي تعب في مفاصله.

وتكشف له شعرها كسنابل الذهب والخمار يسقط من فوق رأسها،

وعندما حاولت التقاطه من الأرض، أمسك بها من يدها وأحس بتيار كهربائي يربك كامل جسده، وأحست بخجل وهي تستسلم له بكثير من الرقة، ثم يطرحها فوق العشب و لم يعد يعلم ما كان يجري من حوله. احتضنها طويلا وهو يبكي على صدرها، دون أن يكلم أحدهما الآخر، ثم طبع على شفتيها قبلة طويلة، وعندما شرع في نزع ملابسها كانت تحاول أن تثنيه عن ذلك باحتشام شديد، وبشكل مفاجئ أصبح الجسدان العاريان ملتحمين.

لم تدم تلك اللذة إلا قليلا، وعاد بشكل مفاجئ إلى تلك البناية، حيث وسيلة تنشد أمامه ذلك النشيد الغريب بلغة حاول عبثا أن يفهم كلمة واحدة منها. إنها وسيلة التي منحته تلك المتعة، التي حضرته بشكل آلي، وأخذ يسأل في أعماقه، هل كان في حلم وعاد إلى أرض الواقع، أم انتقل من حلم إلى آخر و لم يعد إلى واقعه بعد، أم تعددت أحلامه وهو في عا لم آخر لا يمكن من خلاله العودة إلى رشده؟

وجد نفسه مرة أخرى في مواجهة تلك الجماعة من النساء وهن يؤدين بأصوات ملائكية بعض الأهازيج الجماعية التي لم يفهم منها شيئا، وأراد مرة أخرى عبثا أن يلفت انتباههن بالنحنحة أو اصطناع السعال. ولما يئس من كل ذلك خطرت في باله فكرة أن يقتحم عليهن مجلسهن، وعينه على وسيلة التي كان قبل لحظات معها في عا لم غير هذا العا لم وجسدها ملتحم بجسده في حالة أرداها أن تبقى كذلك إلى الأبد. و لم يكن السبيل إلى تجسيد تلك الفكرة بالأمر الهين، شعر بارتباك مفاجئ ونبضات قلبه

تزداد بشكل غير طبيعي، هل هو الحياء أم هو الخوف؟ أم هو العشق الذي فعل فيه فعلته و لم يعد من خلاله فعل أي شيء، وشعر بشلل في إرادته، لكنه قاوم بكثير من العناد تلك الحالة، وأراد أن يصرخ بقوة تزلزل المكان ووجد صوته مرة أخرى يحتبس في أعماقه، وخطر له أنه فقد الصوت بشكل نهائي مثلما فقد الذاكرة منذ زمن لا يعلمه، وحاول جاهدا للمرة التي لا يعلم عددها أن يعصر تلافيف مخه لعله يجد تفسيرا للمتاهة التي وجد نفسه فيها.

وعندما يئس من الصراخ ومن لفت الانتباه، خطرت له فكرة أن يمزق غشاء الخجل الذي كان يلفه، وأن يقتحم مجلس المنشدات. وبإرادة مفاجئة تمكن من التقدم خطوة ثم خطوتين ثم توالت الخطى وهو يقترب أكثر فأكثر من الجمع باتجاه التي يسميها وسيلة، وكان يتمنى في أعماقه أن تصرخ إحداهن وتنهره ولو بكلام جارح في حقه أو أن تبادر الجماعة بالهرب لعله يشفي اعتزازه بذكورته كما تمنى أن تتمنع ومن معها بأنوثتهن، لكن كل ذلك لم يحدث وسارع الخطى إلى أن أصبح على وشك إمساك تلك المرأة التي سحرته والتي لا يذكر أين رآها وهل هي التي قادته من حلم إلى آخر أو من الواقع إلى الحلم، حيث فكر في ذلك اللغز الذي يعيشه و لم يجد له تفسيرا.

عندما أحس أنه سيلامسها، خطرت له فكرة لم يدرس عواقبها، وهي أن يضمها إلى صدره ويبكي بين أحضانها كطفل مقهور، وهجم بالفعل لكنه لم يتوقع ما حدث بعد ذلك، لقد كان يخترقها لم يجد جسمها إلا

كالطيف أو كالضوء الذي لا يمكن إمساكه، والأمر نفسه وجده مع النساء المتحلقات اللواتي استمرين في ترديد تلك الأهازيج التي سحرته وبلغة لم يفهم منها حرفا واحدا، وأخذ يدور حول نفسه ويمسك برأسه لعله يعتصر عقلا بداخله يفسر له ما يحدث معه في هذه اللحظة.

وعندما يئس من فك اللغز الذي يعيشه، راح يطارد طيف التي استمرت تردد مع الجماعة تلك الأهازيج الساحرة دون أن تشعر بوجوده، واستغل الفرصة وتحول الأمر معه إلى ما يشبه اللعبة المسلية، يعود من حيث جاء، يشاهد الصورة كاملة ثم يهجم عليها محاولا مسكها في كل مرة إلى أن يجد نفسه على الجانب الآخر منها، كأنه إزاء مرآة عجيبة لم ير مثلها في حياته.

واستهوته اللعبة كثيرا إلى درجة أنه تمنى أن يبقى كذلك إلى الأبد، لكنه كان يتوقف في كل مرة من أجل تجديد أنفاسه، ثم يتأمل من زوايا مختلفة، ويحاول في كل مرة إمساكها من أي موضع كان، لعله يضفر بجسدها ويندمج معه رغم جماعة النساء المتحلقات، غير أن الجسد كان يهرب من بين يديه في كل مرة كأنه ظل من نور أو شيء لم يستوعبه عقله المنهك الذي تخونه الذاكرة منذ مدة لا يعلمها.

وبشكل مفاجئ، قررت مجموعة المنشدات، ذوات الزي الأبيض الموحد التوقف عن الإنشاد، بعد أن رددن الكثير منه بمختلف الألحان، وضاقت حلقتهن التي كانت متسعة والدائرية كأنها مرسومة بالقلم، وعندما جدّ هذا الجديد تراجع إلى الخلف خوفا من أن يقمن بشيء ضده

وشعر بحالة خجل شديد، وبقي بعض الوقت منزويا على بعد أمتار منهن، ينتظر ما تبادرن به، غير أنه طرح الخجل بشكل مفاجئ وانتابته رغبة عارمة في معانقة كخطوة أولى وليكن ما يكون، وهاجم الجمع بكثير من الإصرار غير أن ما حدث معه هذه المرة كاد يأتي على البقية الباقية من عقله.

شعر وكأن شاشة البث التي كانت تمتعه بتلك الصور الجميلة قطعت إرسالها أو أن التيار الكهربائي انقطع دون أن يحقق مراده، حيث بقي وحده في تلك البناية، التي كانت قبل قليل ممتلئة بالنساء المتشابهات في اللباس وطريقة ارتدائه والمختلفات في الجمال وفي الأعمار، ورغم أن غيابهن المفاجئ حيره بالفعل إلا أن من افتقدها حقيقة هي التي أحس أنه فارقها منذ عشرات السنين، وأخذ يحدق في الفراغ القاتل داخل تلك البناية الشاهقة التي تشبه دور العبادة التقليدية أو كأنها هي، لعله يجد شيئا يفك له اللغز الذي يعيشه. أخذ يطوف بتلك البناية غرفة بغرفة، انطلاقا من القاعة الكبيرة التي دخلها من الطابق السفلي وحيث وجد قبل قليل جماعة النسوة اللواتي أنشدن تلك المقطوعات الجميلة بلغة لم يفهم منها حرفا واحدا لكنها كانت قريبة من وجدانه.

وبشكل مفاجئ وجد نفسه في ظلام دامس، كأن الضوء غادر بصره أو الإضاءة انقطعت عن محيطه، وأخذ يمشي خبط عشواء ولا يدري هل سيصطدم بجدار أو سيقع من هوة قد تأتي على حياته أو تصيبه بكسور في أطرافه ولا يجد من ينقذه وساعتها سينزف ما بداخل عرقه من دم ويقاوم الألم الشديد ويموت ببطء دون أن يفك الألغاز التي تحيط بوجوده

الحالي. وبشكل مفاجئ شعر كأنه يمشي في الفراغ وبالفعل سقط من علو لم يتمكن من تقديره، ووجد نفسه يصطدم بالطابق الأرضي الذي جاء منه، ومن حسن حظه أن سقوطه كان فوق كومة من القش أحس به رغم الظلام، ولم يشعر بأي جرح في أطرافه مع أنه أحسّ بألم يتحمله، وأراد أن يستغل تلك الفرصة لينام نوما عميقا وتمنى أن يسلمه النوم الذي تمناه إلى نوم أبدي يريحه من المحنة المتواصلة التي يعيشها.

استعاد طعم الخبز اليابس الذي قضمه قبل ذلك، وشعر بمرارة في فمه ووجع في فكيه، ومع الألم المتزايد الذي يحس به في أطرافه التي تكاد تتكسر، بدأ جسده يرتعد وقد شعر بالبرد الشديد وجسده يبدو مبللا بفعل المطر الذي ينزل على فترات متقطعة، وزاد صوت الأمواج البحرية المتلاطمة في شعوره بالبرد والغربة الشديدة، لكنه كان يحاول عبثا تناسي الأمر مستعيدا صورة التي كاد يلمسها قبل قليل لولا أن صورتها كانت تهرب منه كشبح، بل استعاد بشكل مفاجئ حالته معها وهو يحضنها في حالة التحام دون أن يلطخ ثوب تلك المتعة المسروقة من الزمن والتي تمناها لو كانت أبدية.

ونسي أمر ذلك الشبح الذي سماها لسبب لا يعرفه "وسيلة" وما جرى له معها في عالمين مختلفين، لم يحسم بعد أين الحقيقة في إحداها وأين الخيال، وهل اللحظتان خيال في خيال والحقيقة الواحدة هي حالة البؤس وتفكك الجسد والجوع والبرد والبحث عن ذاكرة تساعده على الخروج من هذا المأزق. وتكوّم من جديد وهو يشعر بألمين حادين، ألم في أطرافه

السفلى نتيجة لسقوطه من الأعلى بتلك الطريقة في ظلام دامس وألم البرد الشديد الذي يحس به في كل موضع من جسده، وحين لم يتحمل الألم الثاني المضاف إليه ألم المعدة التي التهمت خبزا يابسا مبللا انطلاقا من ألم الأسنان التي بالكاد قضمته، عاد إلى تفكيره ذلك الوجه الفوسفوري الذي صادفه قبل ذلك والذي لم يتذكر أين رآه وكيف رآه.

ومثلما فقد النهار أضواءه قبل ذلك واختزل شيئا فشيئا في نقطة متناهية في الصغر، بلون أزرق، فقد تحول الليل الطويل إلى نقطة زرقاء، بعد أن فقدت أضواء المدينة المختلفة ألوانها التي كان يستأنس بها في غربته وهو على هامشها، دون أن يتمكن من التمتع بدفئه. ورأى نفسه جثة هامدة وقد حوّلها البرد الشديد إلى ما يشبه الكتلة الجليدية، لكن الوجه الفوسفوري الذي يطارده جعله ينسى كل شيء بما في ذلك هواجسه. وحاول عبثا مرة أخرى أن يلملم تلافيف مخه من أجل ضبط عقاربه على مبدأ رياضي لحكاية تتشكل إحداثياتها انطلاقا من ذلك المبدأ، لكن الفضاء يتحلزن ويتحول إلى متاهة تمنعه من رسم ذلك المبدأ وتغيب الإحداثيات تماما ويتحول إلى ما يشبه الورقة الصفراء المبللة في مهب الأعاصير التي لا ترحم.

كانت ليلة طويلة بالفعل، وتكاد لا تنتهي مليئة بالتفاصيل التي لم يستوعبها دماغه الذي بدا فاقدا لكل الأبعاد ولم يجد أي نقطة يرتكز عليها ليرسم إحداثيات تجعل ما يحدث معه يأخذ شكلا منطقيا. ولم يصدق عينيه أن صاحب الوجه الفوسفوري الذي لخبط يومه قبل ذلك

وكاد يفجر رأسه و لم يتذكر أين ومتى رآه وما هي صلته به، يرتسم بكامل تفاصيله وهو متكوم فوق القش البارد في ذلك الركن المنزوي من ذلك الهيكل الكبير للبناية التي على شاطئ البحر على هامش مدينة يراها بلا بداية ولا نهاية.

ومع أن الظلام كان دامسا ساعتها إلا أن صاحب الوجه الفوسفوري ذاك كانت ملامحه واضحة جدا، و لم يدر إن كان الذي أمامه في الحقيقة أم مجرد تصور من تصوراته الكثيرة الأقرب إلى الهذيان.

أراد أن يتناسى أمره ويلتفت مجددا إلى مأساته الشخصية ومتاهته التي لم يجد لها مخرجا إلا أن إلحاح تلك الملامح واستفزازها له جعلته أكثر شرودا ولا يكاد يركز في موضوع بعينه. وقرر بكثير من العناد إفراغ ذهنه من كل شيء حتى يستسلم للنوم رغم البرد والبلل والجوع ومعدته التي تكاد تتمزق جراء الألم الذي سبّبه الخبز اليابس والذي كاد يقضي على أسنانه، وبالفعل بدأ يتكوم أكثر فأكثر فوق كومة القش تلك ونسي أمر العالم الخارجي، وما أن أخذته سنة من النوم حتى نهض مفزوعا على وقع نباح الكلاب التي يكاد يسمعها فوق رأسه.

نهض مفزوعا و لم يكن صاحيا تماما من شدة التعب معتقدا أن النباح ذاك من كوابيسه، وأراد أن يستسلم لغفوة ثانية لكن وقع النباح الذي انقطع للحظات عاد من جديد أكثر شراسة وأقرب من ذي قبل.

راودته شكوك وهواجس عدة وتشنجت كل عضلات جسمه الذي ازداد برودة، وبدأ يتأكد من أن النباح يقترب شيئا فشيئا منه. ورأى أن

تلك الأصوات هي لكلاب مفترسة، وخشي من أن تقتحم عليه خلوته في ذلك المكان المكشوف والذي يجلب المتشردين من أمثاله وكل هائم من الحيوانات جلبا خاصة في مثل هذا الجو الذي يشجع على الاختباء خوفا من موت أكيد تحت رحمة البرد الشديد والمطر الذي قد يهطل في أي لحظة بغزارة ولا أحد يعلم متى يتوقف.

ومن شدة تفكيره في تلك الهواجس، شعر مرة أخرى بألم شديد في رأسه، بل أحسّ بما يشبه الانهيار على درجة تصور نفسه مشدودا بما يشبه الحبال الوهمية التي تقيد جسده كما تقيد تفكيره، وخف صوت الكلاب إلى أن غاب بعض الشيء وحاول مرة أخرى تركيز سمعه لعله يسمع جديدا لهذه الأصوات التي كان قبل قليل يشعر باقترابها منه، وشيئا فشيئا استسلم لغفوة أرادها أن تكون أبدية، ووجد نفسه في عالم من الكلاب بمختلف أنواعها من كلاب الصيد الألمانية إلى السلوقي المحلي والكلاب المشردة والكلاب المدربة وكلاب الحراسة وحتى الكانيش الذي يحيله إلى الحياة المخملية والتي لا يرى نفسه معنيا بها بأي شكل من الأشكال من شدة المعاناة التي مر بها.

رأى نفسه كأنه في واحدة النهار وهو ينهض من تلك النومة، ويحاول أن يلملم عظامه التي تكاد تتهشم، ولم يكد يصدق عينيه عندما رأى الكلاب تسد كل منفذ وتملأ البناية بعددها الذي لا يكاد ينتهي وبأصواتها التي أصبحت تشكل سيمفونية ناشزة تكاد تمزق طبلتي أذنيه، ومع اشمئزازه الكبير من الكلاب وجد نفسه محاصرا ولا يقوى على الهرب منها.

أخذت تلك الكلاب التي كان متوجسا منها تتودد إليه وبعضها يلحس رأسه واستسلم لها، وهو يحدق في أنواعها، وخطر له خاطر وهو أن يكشف أنواعها النادرة من نوع رودفايلر والدوبرمان والكانيش وغيرها، وهي الأنواع التي وجد نفسه يعرفها بدون سبب مقنع، أن يقوم ببيعها في السوق المخصصة للكلاب بأثمان باهظة لأفراد من الطبقة المخملية وسوف يتحول من التشرد والضياع إلى الالتحاق بتلك الطبقة التي تشتري تلك النوعية من الكلاب بأثمان لا تخطر على بال واحد من أبناء الطبقات السفلى من المجتمع.

وتخيّل نفسه واقفا في السوق المخصصة لبيع الكلاب، وأثرياء المجتمع ووجهاءه ونساءه يتزاحمون على سلعته، فهذه الشابة بلباسها الذي أثاره وبلغتها الفرنسية المغنجة تطلب كانيشا من نوع خاص، يساعدها في التغلب على الوحدة بعد أن تخلى عنها أقرب أقربائها، وسيد المجتمع الذي يبدو جديدا من خلال لغته المصطنعة وزيه المبالغ فيه وملابسه غير المتناسقة لونا وشكلا يطلب كلبا من نوع رودفايلر يكون خير عون له على غدر الغادرين، وشاب يطلب سلوقي وهو الذي يهوى الصيد ويحرص على السفر نهاية كل أسبوع نحو بوابات الصحراء كما قال.

ويزاد عدد الزبائن وتتضخم الأموال عنده، إلى درجة شعر فيها بالحرج وهو لا يعرف كيف يحمي تلك الثروة. وهو يشاهد شبابا بدا من شكلهم أنهم من اللصوص يتوعدونه بنظراتهم الشزراء وخشي من أن يستولوا بعدها على كل أمواله وقد يدفع روحه ثمنا لهذه المغامرة غير المحمودة.

لكن ما تبقى بحوزته من الكلاب تحولت بشكل مفاجئ إلى مفترسة، وتمردت عليه، بل وتحول إلى فريستها المفضلة، وحتى الكانيشات الأليفة تضخمت أجسادها بشكل لافت وأخذت تنهش من لحمه وهو يصرخ والصوت يختنق بداخله. ونهض من غفوته التي لا يدري كم دامت واجدا جسده يتصبب عرقا مع أن الوقت شتاء والبرد القارس يكاد يجمد المكان، وبدأ يقتنع أن كل ما مر به هو مزيج من الأحلام والكواليس، وحاول مرة أخرى أن يستجمع أعضاء جسده المنهكة كما حاول استجماع ما تبقى من قدرته العقلية.

ودون إرادة منه عاد إلى تفكيره المتعب ذلك الوجه الفوسفوري الذي رآه في بداية يومه الذي تحول إلى دهر بلا نهاية، وحاول جاهدا باستعمال يديه.

أمسك برأسه لعله يتمكن من تشغيل ذاكرته التي خانته وقد يتذكر صاحب ذلك الوجه وما يمثل في حياته، لكن دون جدوى.

وعندما بدأت ملامح ذلك الوجه الفوسفوري تتضح شيئا فشيئا وهو يحاول القبض عليها مثل إشارة لصورة فوتوغرافية، يتمكن من تخزينها في ذاكرته لعلها تحيله إلى صور أخرى حتى فشلت العملية برمتها وهو يسمع من جديد أصوات كلاب قريبة منه.

وفي لحظة اعتقد أن تلك الكلاب هي بقايا حلم تحول إلى كابوس كان قد رآه في غفوته، لكن الأصوات المقتربة شيئا فشيئا كانت توحي بعكس ذلك، إنها أصوات حقيقية، بل ربما أصوات حقيقته البائسة التي لا يمكن

لشيء أن يعبر عنه إلا تلك الإشارات القاسية التي تتردد في مسامعه والتي لا تحيل في ذلك الجو على شيء جميل.

وشيئا فشيئا بدأ يتبين أن الأمر يتعلق بمجموعة محدودة من الكلاب، كانت برفقة بعض الأشخاص، ولم يجد إلا الاختباء وهو يتحسس وجودهم واقترابهم أكثر فأكثر متيقنا أنهم بصدد دخول ذلك الخراب الذي يقيم فيه منذ مدة لا يعرفها.

بدأت أصوات الكلاب تخفت شيئا فشيئا ومع خفوتها كان يسمع أصوات بعض الأشخاص تتعالى، وكأن أصحابها في حيرة من أمرهم وجدوا أنفسهم في ورطة كبيرة يريدون الخروج منها.

– لقد أتعبني كثيرا، وكدت أسقط معه في كل مرة، إنه أثقل مما تصورت، عليه اللعنة.

– إنه مكان مناسب كما ترى.

– أنا خائف.

– هنا ستكون نهايته، لن يعثر له أحد على أثر.

انكمش أكثر وهو يسمع دقات قلبه التي تكاد تفجر صدره، ويكاد صوت الدقات تلك يغطي على الحديث الذي كان يسمعه. ولا يدري متى سمع حديثا بين شخصين لآخر مرة وكان يتعجب من أنه يفهم الحديث الذي كان يدور بينهما بعد أن اعتقد بعض الوقت أنه نسي كل لغة للتخاطب.

لم يأخذه هذا التفكير طويلا، حتى عاد إلى واقعه وصوت دقات القلب يكاد يفجر جسده، وهو يشعر بخوف شديد إلى درجة شعر من خلالها ببلل ساخن في أثوابه الرثة، إنه البول، بول الخوف الذي يشعر به وهو يحاول الاختباء حتى لا ينفضح أمره وتمزق الكلاب جسده قبل أن تلتهمه أو تتركه جثة منتنة في هذا الجو القارص.

نسي أمر دقات قلبه والبول الساخن الذي بلّل ملابسه الرثة، وهو يستمع مرة أخرى إلى الأصوات التي اقتحمت خلوته، وأحدهم ينطق بالقول: "**لن نجد إلا هذا المكان المهجور ندفن فيه جثته، ولن يتمكن أحد من اقتفاء أثره**".

وساعتها عرف أن الأمر يتعلق بجريمة قتل، نفذها أو شارك فيها صاحبا الصوتين وقد عرف من سياق الحديث أن الأمر يتعلق بشخصين، وتوزعت مشاعره، بين فضول لمعرفة تفاصيل تلك الجريمة ومن يكون الضحية وكيف كانت نهايته من جهة، والخوف من أن يكتشف أمره ولحظتها يتخلص منه المجرمان حتى لا يتمكن من فضح أمرهما، ومرة أخرى خشي من أن تكون نهايته بين أنياب الكلاب التي رافقت المجرمين. وسرعان ما تطور الأمر خارج ذاته ونسي مخاوفه وهو يستمع إلى حديث الشخصين:

لم أكن أتخيل أنك ستتحول إلى قاتل يا بوعلام، وأنت المتدين الخجول الذي كان قبل سنين لا يقوى على ذبح دجاجة؟

- لم استدعك يا أخي في هذا الظرف حتى تسمعني هذا الحديث، أنت تعرف الظروف التي عشتها ودفعتني إلى هذا المصير المظلم.

وبدا أن الرجلين خططا لكل شيء، فقد ساد بعض الصمت، وبدأ يسمع خلاله أصواتا عرف أنها لوقع فأس على تلك الأرضية القاسية، وحدس أنهما بصدد حفر حفرة كبيرة تمكنهما من دفن الجثة التي معهما ودفن سرها إلى الأبد.

تتالت ضربات الفؤوس على الأرض القاسية، في بهو ذلك البناء المخرب من كل جهة، وكان يحس بأن كل ضربة تصيبه في الصميم، ولم يقطع ذلك الريتم القاسي إلا أصوات الكلاب التي كأنها بقيت على مسافة من الرجلين، لكنها تنبح مرة على مرة كأنها تذكّر بوجودها أو تنذر بخطر قد يأتي في أي حين، لكن طريقة نباحها تلك البطيئة والمتقطعة لم تؤشر على خطر من ذلك النوع.

وما أن خفت صوت الكلاب قليلا حتى تردد إلى مسامعه أنفاس كأنها لأحد الشخصين والذي أتعبه الحفر في تلك الأرضية القاسية بآلة حفر تقليدية. وفجأة سمع شهيقا، وتوقف أنين المتعب ليواجه الباكي قائلا:

– وهل ينفع البكاء في هذا الظرف؟

– أنا لا أصدق نفسي، كأني أعيش أطوار كابوس وسأصحو منه بعدها؟

– لن تصحو من هذا الكابوس أبدا. إنه خيارك الذي سيتحول إلى مصيرك، لكن ماذا ينفع اللوم؟ هلا ساعدتني أكثر حتى ننتهي من دفن جريمتك قبل أن يكتشف أمرنا؟

– أنا منهار.. لا أستطيع، تمنيت لو كان أحد معك غيري. أريد أن أنام نومة لا أنهض منها أبدا.

وانقطعت أصوات الرجلين والكلاب وحتى ضربات الفأس، كأنهما تمكنا أخيرا من حفر تلك الحفرة لإلقاء القتيل إلى مصيره وقد يدفن سره معه إلى الأبد. واستمر الصمت إلى حد اعتقد معه أنهما غادرا المكان، غير أن أحدهما قطع الشك عندما نطق قائلا:

– لا داعي للقلق، لقد أخفينا السر الذي لن تتمكن الكلاب المدربة من اكتشافه. اطمئن يا أخي.

ليسأل بعدها بشكل مفاجئ: لم تخبرني عن تفاصيل الحادث، كيف قتلت هذا الشخص وأنت الذي كنت تخشى من ظلك وتفكر في أحاسيس النمل والذباب؟

لينفجر صاحب الصوت الآخر بكاء وهو يقول: "أريد أن أمحو هذه الذكرى السيئة من ذاكرتي يا جمال"، ثم بدأ يحكي:

أريد أن أنام، وقبل ذلك، أريد أن نكون في مكان آمن ولا يهم إن كان فاخرا أم مجرد كوخ، المهم أن يكون دافئا وبعيدا عن أية عين من العيون التي يمكن أن تتسبب في الأذى. أريد ذلك حتى أعيد حكايتي من جديد والتي حوّلتني إلى قاتل. لم أكن أتصور ذلك، لكني فعلت. كان الرجل ينزف دما تحت ضربات القضيب الحديدي الذي كنت أحمله، يصرخ ويصرخ من أجل أن أتوقف عن ضربه، لكن قلبي كان قاسيا. لم أكن أشعر حينها بأي شيء، بل انتابني شعور غريب وكأني كنت أتلذذ بموته الذي كان على مراحل. مع أني استعيد ما حدث وأشعر الآن أنه لم يكن

ينوي شرا، لقد قرأت ذلك في عينيه رغم أن الظلام كان دامسا ولم أكن أرى ملامحه بالشكل الكافي للحكم عليه. تعرفني يا جمال منذ زمن الطفولة وتعرف فراستي وقدرتي الفائقة على قراءة نفوس الناس انطلاقا من ملامحهم بل من هيئتهم العامة الخارجية ولم يكن حدسي يخونني أبدا.

ربما الظروف القاسية التي مررت بها حولتني من حال إلى حال جعلتني قاتلا لا يرحم، وربما الخوف والتوجس الدائم من القادم وأنا أسكن في ذلك المكان الذي يأتيه المجرمون والضائعون في كل وقت قتل قلبي بل ونبتت فيه أشواك كأشواك القنفذ وأصبحت لا أرحم أحدا حتى أقرب الناس إليّ.

هل تعلم يا جمال ماذا فعلت بولدي الصغير وليد؟ الطفل الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره، كدت أقتله وعندما تدخلت والدته من أجل الدفاع عنه ضربتها حتى سقطت أرضا وسال دم غزير من أنفها وأصبحت كالشاة المذبوحة؟

كنت أطلب منه الصمت وأنا أعاني من داء الشقيقة الذي يكاد يقسم رأسي إلى نصفين، ولم يكد يسمعني، وكان يستمر في الصراخ كأنه يتحداني، وعندها انتزعت الحزام الجلدي الذي كان مع سروالي المرمي على الأرض، وقيدت به رجليه، وأتيت بالعصى وشرعت في ضربه على طريقة الفلقة التي كان يمارسها ضدنا معلمو القرآن ونحن صغار، لكن الفلقة التي عذّبت بها ولدي لم تكن تحمل إلا اسمها. كان عذابا حقيقيا بالفعل، الطفل يصرخ وأنا أزداد ضربا لرجليه الصغيرتين باستعمال الحزام الجلدي.

وازداد صراخ الطفل وازداد معه تعذيبي له وكأن شدة التعذيب كانت تتناسب مع ازدياد الصراخ، وتحول الصراخ إلى عويل وأنا أضربه بتلك الطريقة الوحشية

حتى رأيت الدم يخرج من قدمه وتحول الحزام إلى اللون الأحمر.

كنت أرى فمه مفتوحا لكني لم أكن أسمع إلا صوتي الداخلي المريض الذي يدعوني إلى المزيد من التعذيب، وعندما جاءت زوجتي وهي تحاول إنقاذ فلذة كبدها، لم أكن أسمعها هي الأخرى بل لم أكن أراها، وعندما يئست من الأمر حاولت مسكي مرة من يدي فدفعتها دون أن ألتفت إليها فهوت على الأرض وقامت بعدها ورمت بنفسها أمام الولد، ساعتها فقط توقفت قليلا وسمعتها تبكي وتصرخ في حالة هيجان وتقول: "إما أن تتوقف عن هيجانك هذا وجنونك وإما أن تقتلني مع الطفل الذي شرعت بالفعل في قتله".

دخلت حينها في حالة، كأني كنت ميتا وعدت فجأة إلى الحياة، أو كأن أحدهم صب عليّ دلوا من الماء شبه المجمد في يوم بارد جدا، لكن ذلك الماء كأنه صُب على نار ملتهبة فأطفأها وربما لهذا السبب انتبهت للأمر، وشعرت فعلا بشلال من العرق يتصبب من كامل أجزاء جسدي، وسقط حزام سروالي من يدي، وسقطت أيضا، ولم تكن زوجتي تجرؤ على التقرب مني. شعرت باحتقارها لي وأردت تكذيب ذلك من خلال لغة عينيها التي كنت أقرأهما بشكل جيد، لكنها لم تعرني أي اهتمام وأسرعت إلى الطفل الذي كان في حالة بين الحياة والموت.

ساعتها فقط أدركت حجم الجريمة التي كنت بصدد ارتكابها، الطفل الصغير تورمت رجلاه الصغيرتان وانفجرتا بالدم، الذي لطّخ الحزام، بل التصق فيه بعض الجلد، جلد قدمي صغيري الذي كدت أقتله.

توقف الطفل عن البكاء ولم أكن أسمع إلا نحيب الأم الذي تحول إلى صراخ، واعتقدتُ للحظة أنه مات. وسرعان ما صمتت ثم التفتت إليّ كالوحش الكاسر

وهي تغرز أضافرها في وجهي وتقول بكل شحنة الغضب التي في داخلها: "لقد تحولت إلى مجرم"، ولم تزد عليها كلمة، وكادت تمزق وجهي، وبسرعة قبضت على يدها لأتركها بعد ذلك.

بقي الطفل في تلك الحالة، لا يقوى على الوقوف، وأمه ملتصقة به كأن أحدا يريد انتزاعه منها، ثم بكت بحرقة على صدر ولدها، لتلتفت إليّ وتقول: "لست الرجل الذي أحببته وقررت الارتباط به رغم كل شيء. لقد قبلت العيش معك في هذا الخراب وكنت في غنى عن ذلك. أنت شخص آخر تماما، ما الذي حدث لـ...؟"، ولم تتمكن من إتمام الجملة، عندما غلبها البكاء وتحول إلى نحيب. وعندما اقتربت منها أريد التخفيف عنها، حاولت التغلب على بكائها، وهي تقول: "هل نترك الطفل على هذه الحالة؟ لقد شرعتَ بالفعل في قتله، وينبغي على الأقل نقله إلى الطبيب حتى نطمئن عليه".

واحترنا كيف نتعامل معه، هل نذهب به إلى المستشفى الذي في المدينة والتي تبعد عنا بكيلومترات؟ وإن فعلنا ذلك فقد سلمت نفسي للتحقيق ومن ثم الحبس بتهمة الشروع في القتل. وحتى ولو جازفت ولم أحسب للعاقبة، فكيف لي بالتنقل ونحن في تلك الساعة من الليل حيث لا وسيلة للنقل، والطريق غير آمن، وقد نقع بين أيدي مجموعة من اللصوص فتقتلني وتغتصب زوجتي، وإن تركتها في البيت فإني سأجازف والمنحرفون من أفراد العصابات الذين ينشطون في مثل هذه الأماكن يترصدون كل تحركاتي وقد يجدون الفرصة مثالية لتنفيذ مرادهم.

وعندما ازدادت حيرتي، رأت زوجتي أن حالة الولد وإن كانت خطيرة فستتمكن من مداوتاها ببعض الوسائل التقليدية، وبالفعل نجحت في الأمر عندما

قدّمت له بعض الخلطات التي استجاب لها جسده الغض شيئا فشيئا، ومن حسن الحظ فإن زيت الزيتون ذا النوعية الجيدة كان متوفرا في بيتنا، وشيئا فشيئا بدأ الطفل يستعيد عافيته ولم يغادر فراشه أياما طويلة كنت فيها أضطر لحمله إلى المرحاض في كل مرة لقضاء حاجته وأنا ألعن نفسي في اليوم ألف مرة.

تذكر أنه ذهب بعيدا مع الحكاية، و لم يعده إلى واقعه البائس إلا البول الذي كان ساخنا، وسرعان ما تحول إلى برودة. ولأن ملابسه الرثة كانت مبللة به، فقد شعر ببرد غير عاد، لكن الخوف الذي كاد يمزق أضلعه قبل ذلك زال، وهو يرى الرجلين يعتدلان في جلستهما، وأحدهما يسرد قصته التي ربما ستنتهي بتبرير جريمة القتل التي حاول الاثنان دفنها مع الجثة تلك.

ولا يدري كيف شدته الحكاية حتى كاد ينفجر معها بالبكاء، ناسيا ألم الجوع وألم البرد الشديد، وأخذ يسأل نفسه: لماذا أخذتني هذه الحكاية بهذا الشكل، ولماذا شعرت بالصدق في كلام ذلك المسكين؟

حاول مرة أخرى، ربط بعض خيوط عقله المهلهل، ودون مقدمات طفى على سطح مخيلته ذلك الوجه الفوسفوري الذي رآه سابقا، والذي أحدث في دواخله مشاعر متناقضة، وحاول مرة أخرى لملمة عقاربه من أجل العودة من جديد إلى تلك النقطة، حيث تلتقي كل الخطوط ويعود العدّاد إلى نقطة الصفر ليشتغل من جديد بالشكل المراد، ويباشر حياته السابقة إن كانت له حياة.

وبشكل مفاجئ أيضا حاول الربط بين صاحب ذلك الوجه

الفوسفوري، وصاحب الصوت الذي يسمعه والذي تأثر به أيما تأثر وأحس كأن تلك الكلمات خارجة من أعماقه لا من أعماق الغريب القاتل.

وانتبه إلى نفسه في شكل مرتبك وهو يحاول التغلب على مشاعر الخوف التي عاودته والشعور بالبرد وبلل البول في ما يشبه سرواله يدفعه للانكماش على نفسه. لكن الفضول عاوده مرة أخرى لمتابعة أطوار الحكاية، حكاية ذلك الشخص الذي انجذب إليه كثيرا ورغم أنه لم يسمع إلا صوته إلا أنه تخيله يشبه صاحب الوجه الفوسفوري ذاك الذي حيره وأخلط له كل تصوراته، بل أصبح يعتقد لسبب غامض أن القاتل هو نفسه صاحب الوجه الفوسفوري، والذي لا يعلم طبيعة علاقته به في ماضي أيامه إن كان له ماض.

ولم يذهب بعيدا في هواجسه تلك عندما تناهى إلى مسامعه صوت المتحدث وهو يهم بتكملة الحكاية، لكنه عندما ركز انتباهه اكتشف بأن الخيط ذهب منه قليلا، وشعر بأن المتحدث تقدم شيئا ما في الحكاية في غفلة منه، ومع ذلك فقد بقي أكثر إصرارا على المواصلة، فعلى الأقل يستمع للبقية وبعد ذلك يحاول ربط الأجزاء بعضها ببعض.

إنه هاجس آخر أخذ منه لبعض الوقت، لكنه الوقت القليل الثمين الذي لا يمكن تضييع لحظة منه.

وسرعان ما استعاد خيط الحكاية، بعد أن ضحى ببعض التفاصيل وقد عاد الرجل الذي يسمى جمال ليسأل بمرارة وهو لا يكاد يصدق نفسه:

كلامك يا أخي بوعلام لا يبرر فعلتك الشنيعة، هي شنيعة بالفعل ولا أدري كيف تورطت معك وشاركتك إياها، أكاد أفقد عقلي وأشعر برغبة في أن أدفن نفسي إلى جانب هذه الجثة التي لا أعرف شيئا عن صاحبها.

وسكت جمال قليلا ليضيف: **"نحن مشتركان في الجريمة"**. ويسود صمت آخر، ليتبعه كلام بصوت مختلف، إنه صوت بوعلام الذي تولى مرة أخرى دفة الحديث، وهو صوت أقرب إلى قلب ذلك الذي يسترق السمع والذي ظل يبحث عن خيوط تجمع ذاكرته التي يبدو أنها تفككت ويحتاج أمر جمعها إلى معجزة، ورغم برودة الجو والبلل الذي يحسه في ما يسمى سرواله من شدة الخوف أول مرة، إلا أن الاستماع إليه يشعره بطمأنينة لم يستطع تفسيرها.

لقد أصبح يتبنى صوته الجريح ويتعاطف معه كأنه هو، ولم يذهب بعيدا في هواجسه هذه وانطباعاته عندما أعاده صوت بوعلام مرة أخرى إلى الواقع وتحول جسده المتعب إلى آذان صاغية لبقية الحكاية:

كان حالي يا جمال كحال الذي ربطوه بسلاسل حديدية ثم ألقوه في عرض البحر طالبين منه السباحة، بل كان وضعي أسوأ من ذلك بكثير، فأنا الشاب الذي لم يقدم على مغامرة في حياته وكنت مدلل الأسرة، وكل طلباتي مستجابة، تحولت بشكل مفاجئ إلى شخص غير مرغوب فيه، بل إلى شخص منبوذ وكل ذلك بتواطؤ الجميع. وحدث كل ذلك لحظة زواجي، فلم أهنأ بالزواج إلا لحظات معدودات قبل أن تنفتح عليّ أبواب جهنم من كل الجهات. كنت بلا عمل ولا بيت ولا أي تأهيل في أي مهنة، هل تعلم يا صديقي أني فكرت في الانتحار في الأيام الأولى

للزواج؟ ليس هربا من الزواج في حد ذاته ولا شعورا بعجز جنسي أو ما شابه من الحكايات التي سمعناها ونحن صغار وبقينا نسمعها بين الحين والآخر. كانت أسعد لحظات حياتي عندما اختليت بوسيلة ابنة عمي وأغلقت علينا الأبواب، لقد انتظرت تلك اللحظة سنين طويلة، كانت وسيلة فيها حلما بعيد المنال إلى درجة اعتقدت معها أنه مجرد وهم من أوهامي، لكن الحلم ذاك تحول في لمح للبصر إلى كابوس لعين مازلت أحصد نتائجه المرّة حتى لحظتي هذه. وبعد أن استفقت من الكابوس اللعين استعدت شريط حكايتي مع هذه المرأة منذ أن ولدت.

لم أكن واثقا من حبها لي عندما شعرت بذلك الشعور نحوها ونحن عائدان من المدرسة، وكنت أسترق النظرات إليها وقلبي الصغير يكاد يتفجر أو يخرج من جسدي.

أنت تعرف يا جمال ما سأقوله لك لأنك سمعته مني مئات المرات، لكني سأعيده على مسامعك هذه المرة من زاوية أراها الآن مختلفة وبطعم مختلف هو طعم أقرب إلى المرارة مرارة هي المآل البائس والحلم الذي تلاشى بشكل مفاجئ وتحولت في نهايته إلى مأساة.

لم تكن –كما تعرف– حكايتي مع وسيلة مجرد حكاية، بل لا أكاد أذكر بدايتها وأكاد أزعم أني عشقتها وأنا طفل قبل الوعي الأول، وأنا الذي أكبرها بخمس سنوات.

كانت علاقتي غريبة مع والدتها الطاوس زوجة عمي التي أحبتني أكثر من حبها لأولادها، وربما أحببت ابنتها وسيلة وهي جنين في بطنها وكبر هذا الحب إلى أن تحول إلى شيء لا يمكن أن أصفه إذ استولى عليّ، وأصبحت مجنون وسيلة التي

ارتبطت باسمي ولم يجرؤ أحد من أبناء الحومة على الاقتراب منها.

ويذكر الكبار أنه في يوم ولدت وسيلة قالت عمتي الطاوس: هذه هي زوجة بوعلام، قالتها مازحة ثم أضافت: حتى ولو لم يقبل بها بوعلام زوجة له فسوف أزوّجه إياها بالذراع.

وعلم الجميع أن وسيلة لبوعلام وبوعلام لوسيلة، ولم يفكر أحد في معاكستها إلا بعض الغرباء الذين نالوا جزاءهم وندموا بعدها على ما سولت لهم أنفسهم بفعله.

لقد كانت تلك أشهر قصة حب وأكثرها ثباتا في حومتنا.

نشأت الطفلة على حبي وكأننا تزوجنا في الغيب قبل أن نأتي إلى هذا العالم. غير أن الزمن فعل فعلته وانقطعت عنها عندما بدأت مشاكل سن النضج تطاردني. اضطرت مكرهة للتوقف عن الدراسة عند نهاية التعليم المتوسط وقد أراحني ذلك كثيرا بعد أن كدت أفقد عقلي وكنت أغار عليها وأخشى من أن أرتكب من أجلها جريمة في حق أستاذ يتحرش بها أو عابر يعاكسها، وكنت حينها قد غادرت مقاعد الدراسة مكرها في السنة الثانية ثانوي وكل الظروف المحيطة بي من فقر وحالة نفسية كانت تعمل ضد طموحي في مواصلة الدراسة، وأنا لا أجد فلسا يمكن أن أصرفه في يومي أو أن أقدم من خلاله أي شيء مهما كان تافها لوسيلة في مناسبة من المناسبات الكثيرة وكنت أتلقى منها الهدية تلو الأخرى على بساطة كل هدية وكان ذلك يحرجني وأشعر بنقص في مروءتي.

سامحني يا جمال، أعرف أن الوقت غير مناسب، فالبرد شديد ونحن في هذه

البقعة المهجورة، فقد يصيبنا مكروه في أية لحظة، لكني لا أشعر برغبة في العودة إلى ذلك القبر الذي أسميه بيتي رغم خوفي الشديد على زوجتي وابني الصغير وقد تركتهما لمصيرهما في هذه الليلة المشؤومة. أنت تعرف الكثير من تفاصيل حكايتي التافهة، لكن أرجوك اسمعني، أشعر برغبة صادقة في تفريغ كل ما عندي.

وتغيّر الصوت بعد صمت إنه صوت جمال بلا شك الذي يقول في لغة مختصرة: **لا عليك يا أخي، تكلم فأنا أسمعك إلى النهاية.. تكلم.**

ويعود الصوت الآخر للحديث من جديد، صوت بوعلام الجريح، الذي يكاد يمزق قلب السامع، وكأنه خارج من أعماقه. إنه صوته هو كما قال في عمقه، الصوت الذي نسيه كما نسي اسمه وكل ماضيه و لم يعد يعرف عن حاضره شيئا.

واكتشف تلقائيا طريقة جديدة للاستماع، لم يعد يدقق في السمع ويحاول ربط الكلمات بعضها ببعض ويحرص على ألا تفوته كلمة، بل استرخى وكأن الكلمات كانت تخرج من أعماقه.

لم يعد يدري إن كان الكلام خارجا من أعماقه، أم كان مصدره بوعلام وصديقه جمال كما عرف اسميهما من سياق الحديث، أو أن هذا وذاك اندمجا حتى أصبح الصوت من الوضوح وقوة التأثير في النفس ما يجعله على تلك الحالة من الاستسلام.

هي الحكاية التي تتواصل أطوارها وقد توقفت سابقا عند الحالة المزرية التي كان عليها بوعلام وهو يفقد الثقة في الدراسة وفي الحياة ككل.

ولا يدري إن فاته شيء من الحكاية أم كان متابعا لها، وذاكرته المتعبة لا يمكن أن تحتفظ إلا ببعض التفاصيل بشكل مؤقت، ولا يعلم إن كان بإمكانه استعادة ما كان يقوله بوعلام منذ بدايته، والمهم هو الاستماع إلى ذلك الصوت الغريب الذي يبعث فيه مشاعر أغرب.

كنت في حالة جنون عندما علمت أن أستاذ الاجتماعيات في الإعدادي غريب الأطوار واسمه عامر أراد بها شرا، وهو الذي كان يتصنع الوقار، وكانت وسيلة أخبرتني عن نظراته المريبة نحوها قبل أن يتجرأ على تلك الحماقة.

كان يمكن أن تكون تلك أول جريمة قتل في حياتي لولا الأقدار التي أبعدتني عنه أو أبعدته عني، لقد صعد الدم الساخن إلى قمة رأسي ولم أعد أتحكم في تصرفاتي. كان ذلك الأستاذ الأحمق يعيرها بعض الكتب الدينية ويهديها كتبا أخرى، ولم تكن تدري بأنه يخطط لإيقاعها.

كانت نظراته لها تريبها، غير أن سذاجتها وطريقته في تقديم نفسه تجعلها في حيرة من أمرها وتتغلب طيبتها وسذاجتها في النهاية على شكوكها التي تكاد تكون يقينا.

هل تصدق شكوكها، أم تصدق نفاقه الذي ينطلق من تحت القناع الذي كان يرتديه ببراعة فائقة؟

عندما زادت شكوكها أخبرتني وانتظرت لحظة تأكدها من الأمر حتى أضعه عند حده، لكن تلك اللحظة المنتظرة كادت تؤدي إلى فضيحة كبرى وأخسرها من خلالها إلى الأبد.

عندما رأيتها خارجة من الإعدادية وهي على تلك الحال من التوتر، أدركت أن في الأمر شيئا وانتظرتها في الخارج كما جرت العادة، وعلى عكس العادة حيث كنا نكتفي بالنظرات والابتسامات المتبادلة، أحسست أنها تريدني. انزويت على الجميع وأتت إلي لتخبرني بشيء كنت أتوقعه بطريقة أو بأخرى، أستاذ الاجتماعيات الذي كان يدّعي الوقار ينزع قناع نفاقه أمامها ويتحرش بها. قالت لي ذلك بكلمات غامضة ومرتبكة وهي لا تكاد تنطق من شدة الخجل والتوتر، ولم أفهم منها حقيقة ما حصل مع ذلك الأحمق إلا بصعوبة، لقد عرفت منها أنه طلب بقاءها معه في الحجرة وقت استراحة التلاميذ، وعندما اختلى بها أمسكها من يدها وحاول أن يضعها على عضوه قبل أن تنتفض وتهرب منه، وترجتني أن أكتم السر حتى لا يتحول إلى فضيحة ويؤثر ذلك على صورتها أمام أهلها والناس، وقبلت رجاءها بعد إلحاح، لكني لم أغفر لذلك المتخلف حماقته وانتظرته بعد يومين حتى انفردت به وشرعت في ضربه كما لم أضرب شخصا في حياتي، وكان الجبان لا يقوى على الدفاع عن نفسه، لقد أصابه نزيف في أنفه ولولا الناس الذين تجمعوا بعد ذلك عند موقف الحافلات الذي يؤدي إلى الرغاية لكنت قتلته.

كان الجميع يسألني ويسأله عن السبب ولم يتكلم أحدنا عن شيء وبقي الأمر لغزا بين الناس، كان ذلك في آخر الموسم المدرسي ومن ساعتها أمرت وسيلة أن تبقى في البيت، ومن ساعتها أيضا لم أر ذلك المتخلف الذي يكون قد طلب التحويل إلى منطقة أخرى وقد يكون مصيره مختلفا، لم أسأل عنه ولم أتأسف لغيابه، وكدت أنساه نهائيا لولا أني ذكرته لسبب غامض بشكل مفاجئ الآن.

لم تتوقف مشاكلي في سبيلها عند هذا الحد، فقد عاداني شقيقها وهو يتهمني

بالإساءة لسمعتها وسمعة العائلة، وكم حاولت التقرب منه لكني فشلت، وعندها خطر لي أن أتقدم لخطبتها، وعندما كلّمت والدي عاملني وكأنه لم يسمعني وكررت طلبي وكرر تجاهله القاتل، ثم ذهبت كالمجنون إلى والدها ولم يتردد في طردي وهو يهددني قائلا لي إنني إن لم أنس هذه الفكرة فسوف يضربني، وبقيت على هذا الحال كالمجنون. كنت بلا عمل وكان حب وسيلة وخوفي من أن أفقدها يجرانني إلى تصرفات طائشة.

يسود صمت، يكاد السامع يحسبه أبديا، ويخشى من أن يفقد الخيط الذي يربطه بالحكاية، ويغوص في داخله لعله يتذكر شيئا.

إنها الحكاية التي تثير في أعماقه أحاسيس متناقضة، ويكاد يعرف كل كلمة قبل أن ينطقها صاحبها، لكنه يتحول إلى أبله كبير وهو مشدود إلى سماع البقية، وفي الوقت نفسه يحاول التهرب منها كحقيقته هو العارية والقاسية ولكن لا يستطيع ذلك.

وعندما طال الصمت، امتدت يداه إلى الجهة اليسرى من صدره حيث موضع ضربات القلب التي لم تتوقف رغم كل شيء، وحاول الإمساك بشيء يجهله، كأنه يحاول القبض على الحكاية برمتها بما فيها وسيلة وبوعلام وجمال ثم رميهم جميعا بعيدا عنه كقنبلة موقوتة لو انفجرت بداخله لحولته إلى شظايا متفرقة، لكن قبضته لا تمسك إلا العدم ومعها يحاول الاستسلام ليأسه لولا أنه سمع الأصوات تنبعث من جديد، من داخله ومن خارجه.

ولم يأت الأمر هذه المرة كما تمناه، كأنه غاب عن الوعي، واختلطت

الصور في ذاته ولم يعد يعلم إن كان في الحقيقة أم في الخيال، وسارت الأمور بسرعة في سياق لم يكن يتصوره.

كان واقفا في كامل أناقته، يرتدي بدلة سوداء داكنة وقميص أبيض ناصع وربطة عنق بماسك ذهبي، وبحذاء غاية في الأناقة.

وقف بكل أناقته تلك في غرفة نوم من عالم الأحلام، والتفت إلى السرير ليجد امرأة في كامل أناقتها، تخفي جمالها الباهر بين يديها وهي ترتدي فستانا أبيض كأنها الطاووس. تغلب على خجله وهو ينزع من رجليه الحذاء ويتقدم بخطى متثاقلة نحوها، ويحاول أن يرفع رأسها، ولم تقاوم كثيرا وعندما فعل فاجأها بقبلة عميقة بين عينيها، لينطق بأول كلمة:

- كيف حالك يا وسيلة؟

وقبل أن ينتظر جوابا، أضاف في شبه سؤال "كم انتظرت هذه اللحظة؟"

صمتت قليلا ثم أجابته بدموعها التي تفجرت، وسرعان ما رمى بنفسه ببدلته الأنيقة في أحضانها، وبكى معها طويلا، قبل أن يسألها: لماذا بكيت؟ وترد هي: ولماذا شاركتني البكاء يا بوعلام؟ ثم تجيب على سؤاله قائلة: كنت خائفة من أن هذه اللحظة لن تأتي أبدا، من طول انتظاري لها، خشيت من أن تكون مجرد حلم طويل.

سرعان ما صمت الاثنان، وبوعلام نائم في حضن وسيلة بملابس عرسهما وبعد دقائق طويلة نهض كالمنتبه من حلم كبير ونزع ملابسه إلا الداخلية منها، وكانت وسيلة تنظر إليه بشيء من الارتباك وآخر من الفضول، منتظرة أن يشرع هو في نزع ذلك الفستان الذي لم يعد كما كان في عهده الأول، وضمها إلى صدره

واستسلمت له ثم نزع ما تبقى من ملابسهما وطبع على فمها قبلة طويلة لم يكلمها بعدها وقد شرعا في اللحظة التي انتظرها الاثنان منذ مدة طويلة دون أن يجرؤ أحدهما على التفكير قبلها في تفاصيلها.

لم تكن اللحظة المنتظرة تلك للمتعة فقط، فقد كانت ممزوجة بالألم وبالقلق أيضا، وعندما رأى بوعلام الدم بين فخذي حبيبته أثار فيه المشهد مشاعر متناقضة، وسرعان ما تغلبت مشاعر الهيجان على غيرها، ودخل حالة لم تعهده عليها وسيلة التي تعودت عليه هادئا مهما كانت الظروف.

أعاده المشهد إلى آخر رأى فيه نفسه وهو ذاهب إلى المدرسة صغيرا رأسا بدون جسد، رأس رجل بشارب ضخم موضوعا فوق صخرة على قارعة الطريق، وصادف ذلك أن كان يمشي لوحده. أصيب بصدمة نفسية عميقة بعد أن دقق فيه، لم يعرفه ولم يذكر أنه رأى صاحب الرأس قبل ذلك اليوم لكنه بقي راسخا في ذهنه، عينان كأنهما لشخص على قيد الحياة يحدق فيه، ربما كان يحدق في قاطعه الذي لا يعلم ماذا استعمل في سبيل ذلك، هل السكين الحادة أم أدوات الجزارة الخاصة بقطع العظم أم السلك كما كان يسمع في بعض الحالات، وقرب الرأس الموضوعة ارتسم خيط من الدم يكاد يغطي على تفاصيل الوجه، ورأى من بين الدماء في الوجه ندوبا زرقاء تصورها من فعل أحد قاطعي الرأس الذي يكون قد ضربه بالسكين حتى غار في وجهه وفي أكثر من موضع، وانتبه ساعتها للمشهد وخشي من أن يتورط معه فتلصق به الجريمة بشكل أو بآخر.

فر هاربا نحو المدرسة حيث قضى ساعات في القسم قبل أن يخرج ويعود

مع أصحابه باستعمال الطريق نفسه، لكنه لم ير ذلك الرأس. ومنذ تلك اللحظة بدأ يقسّم حياته إلى ما قبل الرأس المقطوعة وإلى ما بعدها، أما لحظة مشاهدة تلك الرأس فتحولت إلى دهر من الكوابيس سيطر على حياته وكاد في أكثر من مناسبة أن يدخله دائرة الجنون.

خاف بوعلام حتى من أقرب أقربائه ولم يكشف السر حتى لوالدته التي رأت تدهورا في حالته النفسية والكوابيس لا تغادره وهو ينهض صارخا ويقول كلاما غريبا. اعتقدت أن عينا مسته ودفعت الكثير من الأموال للرقاة وكانت حالته تتراوح بين التحسن والتدهور، كان يرى الرأس المقطوعة وعليها تلك الندوب الزرقاء التي تشبه الثقوب العميقة، وبقع الدم تطارده، وأحيانا ينهض الرأس في منامه، رأس بلا جسد ويجري وراءه ويصرخ كأن الحياة عادت إليه ويكاد يلتهمه وهو يتفوه بكلام يتراوح بين اللوم والتهديد إلى أن ينهض مفزوعا وهو يصرخ.

ظل بقية حياته يُثار عند رؤية الدم، وكان لا يسره، بل يثيره مشهد الدم يوم عيد الأضحى في كل مكان وسرعان ما تتدهور حالته ويحار أهله ويجزم بعضهم أن الأمر له علاقة بمس من الجن يسكن تلك الدماء وينبعث منها، ومع التجربة اختار ألا يغادر غرفته يوم العيد حتى لا يرى مشاهد تلك الكباش المذبوحة بل ووصل به الأمر إلى أن تعقّد من أكل اللحم مهما كان نوعه، وكان رفقاء الحي يصفونه بـ"الكائن النباتي" ولم يكن يعلم شيئا عن تلك الصفة.

لم يعد يلبس اللون الأحمر، الذي يعيده إلى تلك الأزمة، وفي كل مرة يكون مزاجه معكرا، يطارده ذلك الرأس في كوابيسه، رأس بدون جسده، كأنه يطير في الهواء بلا جناحين ويصرخ ملء فيه، بكل تفاصيل وجهه الذي رآه أول مرة،

يكاد يلتهمه، وهو يصرخ ويقول كلاما بذيئا وآخر غير مفهوم إطلاقا، ثم ينهض مفزوعا من نومه وهو يتصبب عرقا ويحمد الله على أن الأمر لم يكن حقيقة، ثم يستعيد في صحوه ذلك الوجه بالتفاصيل الدقيقة، ندوب زرقاء وبقع دم، وشارب أسود كث ينتهي بندبة على الجهة اليمنى، وكأنه ينبعث من خلف الظلام يفتح فمه عن آخره ويحاول التهامه، ويشعر بالكابوس الذي كان يطارده في النوم يتحول إلى حقيقة كأنه تسلل من المنطقة التي بينهما، ويتمنى مرة أخرى لو يهرب من ذلك الكابوس إلى النوم طمعا في الخلاص منه إلى الأبد، لكن النوم يهرب منه في تلك الأثناء ويحاول طرد ذلك الرأس الذي يطارده من تفكيره، ليفكر في وسيلة الطفلة التي نشأ على حبها والتي لا تعلم شيئا عن تلك المحنة التي تكاد تدفعه إلى الجنون ولم يفكر في إخبارها بذلك خوفا على مشاعرها ومن أن تنتقل إليها عدوى ذلك الرأس اللعين.

لقد مرّ كل ذلك التاريخ في ذهنه بسرعة البرق وهو يرى الدم ينساب بين فخذي زوجته ليلة العرس، كان ساعتها عاريا تماما، وكان يصرخ بشكل هستيري قبل أن يفتح الباب ويخرج كما ولدته أمه، وكان هناك جمع من النساء من أخواته تجمعن وأخذهن الفضول وكن ينتظر ما ستسفر عنه الليلة كما تعودن في مثل تلك الليالي المشهودة من حفلات الزفاف، وعندما سمعن تلك الصرخات اعتقدن أن بوعلام اكتشف في وسيلة ما يكرهه الرجال في زوجاتهم في مثل تلك الليلة، وكان الموقف مربكا ومخجلا جدا وهن يشهدن بوعلام دون ثياب وهو يجري ويقول كلاما مبهما. وازداد خجل الجميع وزادت معه علامات الاستفهام ولم تفهم إحداهن شيئا مما يحدث. أسرع جمع النساء إلى غرفة النوم حيث توجد وسيلة، وجدوها متكومة برداء السرير، وبصعوبة تمكنوا من رفع رأسها، كانت تبكي بألم وبصدمة كبيرين،

وكان الجمع متشوقا لفك اللغز، وتكرر السؤال نفسه بصيغ مختلفة:

– ماذا حصل؟

– هل حدث شيء مكروه؟

– ما الذي دفع بوعلام للتصرف بذلك الشكل؟

تكرر السؤال بتلك الصيغ وبغيرها، وغاب الجواب، وبدأ صوت من داخل الجمع يقترح جوابا من أجل تبنيه بعد ذلك. يبدو أنها عمة بوعلام المسماة مسعودة، التي كانت تتكلم بقين وتوجه اتهاما مباشرا للعروس المصدومة:

– لقد سحرته، هربا من فضيحة البكارة..

وبسرعة اُنتزع الرداء من وسيلة وبدت عارية كما ولدتها أمها، لكن أثر الدم كان واضحا على الرداء كما كان واضحا بين فخذيها وقد فتحتهما بعض النسوة بقوة تشبه الاغتصاب إلى درجة صرخت عاليا وهي تقاوم بشدة، وتبين بطلان ذلك الاتهام بسهولة ودون أن تدافع المتهمة عن نفسها وقد واصلت البكاء وهي عارية قبل أن يبادر البعض بسترها من جديد برداء نظيف، وتطلب بعض النسوة ملابس لها.

ورغم إثبات براءة وسيلة من تهمة الهرب من فضيحة العذرية، إلا أن الاتهام كيّف من جديد وأصبحت في نظر مسعودة مجرد مشعوذة حضّرت عقارا فعّالا للعريس المغفل، وربما هو استمرار لسلسة من العقاقير السحرية تناولها الضحية منذ نعومة أظافرها وهو السر الخطير الذي جعله يتمسك بها كل تلك الفترة، وقد عمدت إلى سحره ليلة الدخلة حتى تقضي عليه وعلى مروءته بشكل كامل وتفعل

ما بدا لها بعد ذلك، وكل تلك الألاعيب هي بفعل والدتها الطاووس التي تدّعي البلاهة لكنها تبطن ما لا تظهر. وبسرعة تصورت مسعودة حكايات بدأت تسردها على الجميع، وكيف أن الطاووس والدة وسيلة كانت تغيب عن الأعين حتى تذهب إلى المشعوذين وتأتي بالسحر الذي يغمض أعين الجميع ويتركها تتحكم في نفوس كل الناس وكان أحد ضحاياها بوعلام المسكين الذي يبدو أنه جُن ليلة زفافه نتيجة لقوة العقار وهو أقصى ما يقع لضحية أعمال شيطانية من هذا النوع. والطاووس التي كانت صامتة في البداية وسمحت تحت تأثير الصدمة بمعاملة ابنتها بتلك الطريقة، انفجرت عندما سمعت اسمها والاتهام الموجه إليها، وثارت في وجه مسعودة سبا وشتما وتطورت الاتهامات بعد ذلك بلغة بذيئة إلى حد التشكيك في شرف كل واحدة، وتطور الأمر أكثر إلى عراك بين السيدتين، وكل ذلك حدث وسط ذهول ودهشة العروس التي تحولت ليلتها إلى مأتم حقيقي وانفجرت بكاء هستيريا وهددت بالانتحار وهي تحاول الهرب من ذلك المجمع وإيجاد طريقة لإنهاء حياتها التي تحولت بسرعة من أقصى السعادة إلى أقصى البؤس والشقاء، لكن جمع النساء منعها من التحرك وبالمقابل لم يتمكن من منع بكائها الهستيري الذي تواصل، قبل أن يعاد طرح السؤال الحقيقي عن سر ما حدث لبوعلام العريس الذي يبدو أنه فقد عقله وخرج عاريا كما ولدته أمه.

بدا وكأن وسيلة فقدت صوتها ولم تُسمع منها كلمة واحدة طيلة فترة استنطاقها، لقد عوضت الكلام بالبكاء الذي بالغت فيه إلى أن فقدت وعيها، لكن أهل بوعلام لم يتركوها لحالها واتهموها بتصنّع الانهيار هربا من السؤال الذي لم تجب عنه، واستمر الجدل وسط الصخب إلى أن ارتفعت أصوات تنادي بالرحمة حتى لا تموت العروس في تلك الليلة، وبالفعل استدعي أهل البيت الذين كانوا

متفرقين، ونُقلت وسيلة إلى المستشفى وهي في حالة غيبوبة لم تنهض منها إلا في ساعة متقدمة من اليوم الموالي، بينما كان بوعلام في غيبة أخرى، وقد آواه ابن عمه جمال الذي قصده لا شعوريا وهو بلا ثياب ويكاد يكون بلا عقل، وسرعان ما غطّاه برداء وأدخله غرفته وتركه ينام دون أن يسأله عن شيء.

بات العروسان في مكانين مختلفين ولم يصدّق أحدهما صباح اليوم الموالي ما حدث، وكأن ليلة الدخلة كانت مجرد حلم، وسيلة منهكة في المستشفى وبوعلام يكاد يفقد عقله وهو ينهض من كابوس طويل في بيت صديقه جمال، وعندما يسأله صديقه بعدها عما حدث لا يكاد يتكلم، ويضطر الصديق لسحب السؤال والاعتذار، ولم تجد وسيلة من يقف بجانبها إلا أهلها بعد الذي حدث لها مع أهل زوجها في تلك الليلة المشؤومة. وكلما مر وقت بدا أن العريسين يتعدان عن بعضهما البعض، وكأن الزواج لم يتم إلا في ذهني عاشقين حاول كل منهما تحدي الظروف لكن ما وقع كان أكبر من إرادتهما وربما من حبهما.

في لحظة ما انتبه إلى نفسه، كان في وضعه السابق، فاقدا للذاكرة والهوية، الجوع والبرد والبلل في ملابسه الرثة وروحه تكاد تخرج من ذلك الجسد المتعب. و لم يدر إن كان الذي عاشه قبل قليل جزءا من حياته السابقة أم هي مجرد صور ارتسمت في خياله كأنها الواقع من كثرة تركيزه على الحكاية التي أخذت ما تبقى من عقله، هل هو الواقع أم الخيال الذي كان أغرب من الواقع وأكثر تعبيرا عنه، وبديلا له في غياب وعيه بواقعه وبحياته السابقة. تأسف كثيرا عندما عاد إلى واقعه المؤلم ذاك، لكنه كان أكثر إصرارا على تتبعه بطريقة أخرى، باستعمال السمع هذه المرة، وهو

يرى هذه المحاورة الحزينة بين بوعلام القاتل كما أصبح يعرفه ويعرف تفاصيل صورته كما عاشها دون أن يراها في هذه الظلمة الحالكة وبين صديقه جمال الذي ضحى بكل شيء في سبيل مساعدة الصديق ولو من باب المشاركة في الجريمة.

ووجد نفسه متعودا على تتبع أطوار الحكاية، حتى ولو غابت عنه بعض تفاصيلها، لم يعد في حاجة إلى تركيز سمعه من شدة البرد، والسمع وحده قد يخون صاحبه إذا لم يكن يرى المتكلم رأي العين، أصبح يكفيه إغماض عينيه لتتدفق التفاصيل، ووجد نفسه ينتقل إلى طور آخر.

دخل بوعلام على وسيلة، غير أن الأمر اختلف جذريا عما كان عليه في السابق، لم يعد العريس الأنيق الذي كان، ولا عادت وسيلة العروس التي كانت في أبهى ما تشتهيه العين وهي ترتدي فستان العرس في ليلة دخلتها، كان دخولا باهتا وهو غير حليق الوجه ويرتدي أثوابا رثة، يجر الخيبات التي يبدو أنها تراكمت في حياته.

كان بوعلام ينظر تارة إلى البيت الذي كان في حالة كارثية، وهو أقرب إلى مخبأ منه إلى شيء آخر، وتارة ينظر بإشفاق إلى وسيلة التي لم يتمكن من إدخال الفرحة إلى قلبها إلا في حالات نادرة وهو يرى الواقع أقوى منه، لقد كافح طيلة حياته من أجل أن تكون زوجته لكنه لم يعش حياة زوجية كما عاشها الذين عرفهم، حتى أن ليلة زفافه تحولت إلى ما يشبه المأتم، ووجد وسيلة تبتعد عنه كأنه لم يتزوجها إطلاقا، وأصبح أمر إعادتها إليه أصعب من الزواج نفسه، لقد اُتهمت في كرامتها وخرجت من بيت الزوجية شبه مطرودة، وقابلها أهلها بغير الوجه الذي ودعوها به عند الزفاف، واحتاج الأمر إلى مغامرة أقرب إلى اللعنة من أجل لم شمل الحبيبين.

وكاد حبل الماضي بمرارته يأخذ جمال أكثر لولا صرخة طفله الصغير وليد تملأ البيت.

– لقد كره البقاء في هذا السجن، يريد الخروج.. يريد أن يمرح مثل أقرانه.

تقول والدته بصرخة قوية في وجه زوجها، لم يتعودها منها. فكر في أن السنين والمحن أتت على ذلك الحب الكبير، وتأسف على المآل. لقد مرّت سبع سنين على الزواج ذاك الذي لا يحب الطرفان ذكر ليلته الأولى تلك، واحتاج الأمر إلى مغامرة في المجهول من أجل لم الشمل من جديد. عائلة بوعلام تتهم وسيلة ووالدتها بالسحر والشعوذة، وعائلة وسيلة تتهم أهل بوعلام بالحُقرة التي لا تغتفر، والطرفان مع الطلاق ونسيان ما فات كأضعف الإيمان، لكن إرادة بوعلام كانت أقوى في وقت كادت وسيلة تستسلم فيه للأمر والواقع وهي التي لم تفهم شيئا مما حدث في تلك الليلة وتكاد تفقد عقلها عندما تستعيد تلك التفاصيل.

سدت في وجهه كل الطرق، غير أنه لم يستسلم، قرر في لحظة مجنونة أن يذهب بها نحو المجهول، اتفق معها على لحظة تغادر فيها البيت، وبالفعل خرجت وهي مسلوبة الإرادة خائفة من المصير في منتصف الليل ولم يكن معها إلا بعض ملابسها، ثم سار بها من هراوة، تلك البلدة الهامشية في الضاحية الشرقية لمدينة الجزائر وركب الاثنان حافلة الخامسة صباحا التي تقّل عمال ورشات البناء وبعض المسافرين الآخرين وتوجهوا أولا إلى الرغاية كمحطة انتقالية، ليغيروا الحافلة بعدها. ركب كل على حدة حتى لا يثير الأمر اهتمام وفضول أحد من الركاب الذين يعرفه بعضهم، وعند نزولهما في الرغاية، ركبا الحافلة المتجهة إلى قلب الجزائر العاصمة ووجدا نفسيهما بعد ساعة زمن في محطة الثاني من شهر ماي بوسط مدينة الجزائر.

ولحظتها شعرت وسيلة بحاجز التردد يزول ويزول معه حاجز الخجل وبدأت تحاصر بوعلام بأسئلتها وهي لا تقوى على كبح دموعها وحيرتها:

– أين ستذهب بي يا ابن الناس؟

لكن بوعلام وجد لسانه متلعثما، وحاول التغلب على ارتباكه وهو يجيب:

– أنت زوجتي على سنة الله ورسوله، لقد جرت كل مراسم الزواج بما فيها الزفاف والوليمة، أريد الذهاب بك بعيدا عن أعين الناس.. أريـ....

وشعر بتلعثم أكبر وهو يحاول إتمام الجملة، ثم طاوعه لسانه وهو يقول بكثير من الألم: "أريد أن أنام في حضنك يا زوجتي إلى الأبد".

كادت تحضنه وهي في المحطة الممتلئة عن آخرها بالحافلات، قريبا من محطة آغا حيث حركة القطارات نحو الضواحي والمدن البعيدة تصنع مشهدا لم تألفه عيناها مثلما لم تألف ذلك العمران المميز مع أنها عاشت كل حياتها السابقة غير بعيد عن هناك ولم تتعود على المجيء إلى تلك الأمكنة وقد عاشت قبلها داخل قوقعتها في محيطها الضيق بهراوة حيث ولدت وكبرت واعتقدت أنها ستقضي بقية حياتها هناك.

نظر إليها باشتهاء وأمرها بإشارة من عينيه أن يغادرا المكان وسط زحمة الحافلات القادمة من الضاحية الشرقية للجزائر العاصمة، نحو محطة تافورة حيث الحافلات التي تتوجه أساسا نحو الضاحية الغربية منها.

كانت وسيلة تنظر إلى زوجها تارة، وإلى ذلك العمران الذي لم تألفه عيناها

وتلك الزحمة تارة أخرى وهي تمد رجليها نحو المجهول الذي لم يشجعها عليه إلا حب بوعلام وثقتها المطلقة فيه.

وعندما وصلا المحطة المشابهة للتي نزلوا فيها والقريبة منها، قال لها باختصار ودون مقدمات:

– نحن ذاهبان إلى لا بوانت.

لم تستوعب القول أولا، لكنها بدأت تفكر في أبعاده وتحاول رسم صورة للوجهة تلك، وعند ركوبهما حافلة مكتوبا عليها الرايس حميدو، جعلها تسأله:

– هل لابوانت هذه بعيدة عن الرايس حميدو؟ وكم من حافلة أخرى يمكن أن نركبها من أجل الوصول إليها؟

ابتسم في وجهها من وراء الحيرة التي كانت في وجهه وهو يقول: "الرايس حميدو هي لابوانت، ألم أخبرك عنها من قبل؟"، ليضيف بعد ذلك قائلا: "ورشة البناء التي كنت أعمل فيها في الحمامات قريبة جدا من هناك. أنا أعرف تلك المنطقة جيدا ولي فيها معارف كثيرون، نستطيع بناء حياتنا من جديد هناك، بعيدا عن أهلي وأهلك وكل الذين تسببوا في مأساتنا السابقة".

لم يصل الزوجان إلى مأواهما بسرعة، فكان عليهما عند النزول في موقف الحافلات المشي كثيرا وفي كل مرة تعتقد وسيلة أن بيتها في هذه العمارة أو تلك يخيب أملها إلى أن أصبحا خارج المدينة، وكانت صدمتها كبيرة عندما علمت أن مأواها في ذلك المكان الموحش الذي يبدو كورشة بناء، أخذ بوعلام في تهيئتها نفسينا بالقول إن الأمر مؤقت، وعندما تسنح الفرصة سينقلها إلى بيت يليق

بمقامها. ثم قال إن هذا البيت المؤقت هو عبارة عن ورشة لبناء عمارات باشرتها شركة عدل، لكن المشروع لم يتم بسبب خلافات مع المقاول انتهت إلى المحكمة ولم تتمكن الشركة من إسناد المشروع لمقاول آخر فقد أفلست وبقي ذلك الهيكل على تلك الحال.

لم تكن وسيلة تفهم كثيرا في تلك التفاصيل، وقبل أن تسأل أكمل بوعلام كلامه بالقول، إن من ساعده في المجيء إلى هذا المكان واقترحه عليه هو "العيد" الحارس السابق للمشروع الذي أقام ما يشبه البيت وسكن وأهله فترة من الزمن قبل أن يتنقل إلى مكان آخر بعد أن أوقفت الشركة المفلسة راتبه ولم يعد لعمله هنا مبرر.

واستولى الخوف على وسيلة وهي تتصور نفسها تقضي وقتا طويلا لوحدها حيث يضطر زوجها لقضاء شطر كبير من اليوم في العمل، وتصورت نفسها عرضة لكل الأخطار فقد يقتحم عليها غرباء خلوتها، كما قد تهاجمها بعض الحيوانات الضالة، لكنها حاولت قدر المستطاع إخفاء مخاوفها إلى أن تكتشف كل تفاصيل المكان عند الوصول إليه فلم يبق وقت طويل لذلك، وقد تكتشف واقعا أجمل من الصورة التي بدأت ترتسم أمامها.

استقبلتهم مجموعة من الكلاب المربوطة بنباحها، وطمأنها بوعلام بالقول إن تلك هي كلاب صديقه العيد كان يستعين بها على الحراسة، وقال ستكون خير معين في النهار وفي الليل وما عليها إلا الاهتمام بها بتقديم والعناية اللازمة.

شعرت برهبة أكبر وهي تتقدم ببطء نحو ملجئها ذاك على وقع نباح الكلاب الذي لم يتوقف، خصوصا وهي تكره الكلاب منذ طفولتها الأولى.

وشيئا فشيئا دخلت وسيلة ذلك الملجأ وهي تدرك أنه قبر حياتها الذي ربما لن تهجره إلا إلى قبرها الأبدي، وكم كانت صدمتها وهي تمسح بعينييها تفاصيل ذلك الملجأ من الداخل وهو الذي يصلح لأي شيء إلا لأن يكون بيتا يقيم فيه البشر، لكن زوجها أراد أن يهوّن عليها الأمر بالقول إن كل شيء مؤقت، ثم أنه سيشتري أثاثا وأواني تساعدهما على الإقامة بالحد الأدنى من الكرامة الإنسانية.

تذكرت كل تلك التفاصيل بعد سنين قضتها في ذلك الكوخ دون أن يلوح أمل في الأفق في أن تغادره، وهي تصرخ: "لست الرجل الذي أحببته وقررت الارتباط به رغم معارضة الأهل. لقد قبلت العيش معك في هذا الخراب وكنت في غنى عن ذلك. أنت شخص آخر تماما، ما الذي حدث لـ...؟"، ليغلبها البكاء ولم تستطع إتمام الجملة، لتلتفت إلى ثمرة حبها الطفل وليد وهو على تلك الحالة لتقول: "هل نترك الطفل على هذه الحالة؟ لقد شرعتَ بالفعل في قتله، وينبغي على الأقل نقله إلى الطبيب حتى نطمئن عليه؟"، وطيلة أيام مرض الولد وهي معه تحاول إنقاذ حياته، كانت بالمقابل تعمل جاهدة على إنقاذ حبها، بل إنقاذ زوجها من الضياع وهي ترى ذلك المصير الأسود، والرجل الذي أحبت غير هذا الرجل الذي يبدو فاقدا كل المشاعر الإنسانية، وكأن ظروف العمل والمأوى القاهرة حولته إلى ما يشبه الوحش، وأدركت بحدسها أن حياة بوعلام تنحدر في اتجاه لا تريد التفكير فيه، وعندما تفعل ذلك تصاب بصداع نصفي يكاد يشق رأسها ولا تجد بعدها إلا ربطه بقوة بمنديل بعد أن تبلله بماء الزهر وتحاول عبثا الاستسلام لنوم لن يأتي.

وعاد لاكتشاف وضعه من جديد دون أن يتمكن من معرفة هويته، مجرد جسد مرمي داخل خراب لا يعلم كيف جاء إليه، فاقدا للذاكرة

والهوية، ويشعر بألم وبالجوع والبرد والبلل في ملابسه الرثة، وبألم أكبر وما تبقى من عقله يكاد ينفجر رغبة في استعادة الذاكرة التي من شأنها فك كل الألغاز التي تكبله، ولولا ما يحصل أمامه من حكاية يسمعها مرة ويحس بأنه يعيشها بكل تفاصيلها كأنه أحد صانعيها لكان قد قضى عليه اليأس وتحول إلى مجرد كومة من العظام وبعض اللحم مغلف بألبسة بالية نتنة قد تكشفه الكلاب لاحقا ليتحول إلى وجبة لها وقد تكون أسوأ وجبة وقد تعافه الكلاب نفسها وتترك جثته العفنة تتحلل من تلقاء نفسها.

وازداد نباح الكلاب بشكل ملفت، كان بوعلام متعبا يغالبه النعاس وهو يستعيد كثيرا من الصور التي تؤرقه، ذلك المكان المعزول يبدو أنه لم يعد كذلك، أصبح ملتقى للمشبوهين، ويبدو أن عصابات المخدرات وشبكات الإجرام بدأت تتشكل في المحيط، وأصبح في حالة تأهب قصوى تحسبا لأي طارئ.

يفكر في مغادرة الوكر إلى المجهول رفقة ولده وزوجته التي يبدو أنها تأقلمت مع تلك الحياة السفلية ولم تعد تطالب بالرحيل، وربما يئست من تحسن وضعها واستسلمت لقدرها وهي في حالة تشبه الموت. ووجد الرجل عقله عاجزا عن التفكير وكل السبل مسدودة في وجهه، ويحاول مثلما يفعل في مرات نادرة التفكير في العودة إلى بلدته هراوة حيث أهله وأهل وسيلة، لكنه يستعيد كل تفاصيل مآسيه السابقة ويصبح أمر العودة كالانتحار بل أسوأ منه، حيث لم يعد يربطه بهرواة تلك البلدة الصغيرة شرق مدينة الجزائر إلا الذكريات السيئة وصداقته لجمال التي لم تنقطع يوما، وتمكن من أن يحافظ على خيطها وهو الآن يمتلك رقم هاتفه النقال ويلتقيه مرة على مرة في الجزائر العاصمة أين يقيم الأخير ويعمل في بيتزيرا بحي

ميسوني حيث يحرص على أن يدعوه إلى وجبة بيتزا ساخنة ويعطيه واحدة مغلفة "للعائلة" كما يقول له.

يتذكر ما حدث له مع ولده، وكيف أنه شرع في قتله بالفعل، ويشعر أن شيئا في أعماقه مات، وكأنه أحاسيسه أو قلبه الذي كان مملوءا بحب وسيلة لكنه الآن يكاد ينسى ذلك الحب الذي أصبح كالطيف البعيد يحاول استعادته كالذكرى التي لا يتمتع بها إلا للحظات قليلة قبل أن يعيده نباح الكلاب إلى واقعه التعيس فيخرج في ساعة متأخرة من الليل حاملا آلته الحديدية التي استعان بها منذ أن سكن ذلك المأوى مرفقا بالكلاب وهو يطارد العصابات التي ملأت المكان، وكثيرا ما نجح في طرد الأشخاص الذين كانوا قريبا من هناك بشيء من الشجاعة المدعمة بسلاحه الحديدي ذاك وتارة أخرى بتهوره وكان يمكن أن يتغلبوا عليه بعددهم وساعتها لا يعلم مصيره ومصير زوجته وولده وعندما يفكر في ذلك يتمنى لو أنه مات قبل أن يحدث له ما يمكن أن يحدث. لكنه يملأ الدنيا صراخا ووعيدا وبأنبأ الكلمات بينما تملأ الكلاب المكان نباحا حيث ينجح في طرد الخطر مؤقتا ولا يكاد يرتاح قليلا حتى يعود إلى هواجسه ومخاوفه التي تذهب النوم من عينيه.

استسلم مرة أخرى لنوم عميق من شدة التعب، غير أن كابوسا طارده في منامه، جاءته الرأس المقطوعة التي رآها صغيرا في طريقه إلى المدرسة، لكن تلك الندوب التي تشبه الثقوب على وجه الرأس سرعان ما ابتلعته ورأى نفسه في متاهة وسط الأوحال التي غرق فيها وكاد يتقيأ أحشاءه من شدة النتانة التي كان في وسطها دون أن يتمكن من التخلص منها، ووسط تلك الأوحال التي دخلها عن طريق ثقبة زرقاء صغيرة في الرأس المقطوعة التي ابتلعته، كان يرى آلاف الرؤوس المقطوعة

الأخرى مزروعة على مد البصر وكل رأس تشبه الأخرى كأن الأمر يتعلق بصورة مكررة إلى المالانهاية من المرات وفي كل الاتجاهات، وكل رأس من تلك الرؤوس التي لا ينتهي عددها فيها ثقوب باللون الأزرق تحاول التهامه ليغوص أكثر في وحل المتاهة التي اعتقد أنها أبدية، ولم يجد إلا أن يصرخ بأعلى صوته إلى درجة أفزعت زوجته وسيلة وابنه وليد وقد بدأ الطفل في البكاء إلى درجة انتبه معها بوعلام من كابوسه واجدا نفسه في ذلك الملجأ الذي يسميه بيتا، ونباح الكلاب يكاد يهز المكان. وأدرك بحدسه أن أصوات الكلاب تلك توحي بخطر قريب منه، فليحاول الوقوف عليه في تلك الساعة المتأخرة وسط الظلمة الحالكة لليل الشتوي البارد والممطر، وحاولت وسيلة بشتى الوسائل أن تثنيه عن مسعاه وهي تتوسل أن يبقى معها وولدها والخوف الذي اعتقدت أنه فارقها من كثرة ما شعرت بتبلد إحساسها عاد إليها بشكل كبير وهي تدرك أن أمرا يحدث في هذه اللحظة وهي التي كثيرا ما وقفت على صواب توقعها.

خرج بوعلام من المأوى، وهو لم يتخلص من كابوسه بعد، في يده قضيب حديدي بمقدمة حادة، ويتبعه كلبان كانا مربوطين بالجوار، وهو لا يتنقل في هذه الساعة المتأخرة إلا متبوعا بهما، وشيئا فشيئا بدأ يقترب من جماعة الفتيان التي كانت في مكان بجوار المشروع الذي تحول إلى خراب موحش وسط الظلمة الداكنة والبرد، متخفية من البرد الشديد والمطر الذي قد ينزل في أية لحظة، ويتمنى لو أن أفراد تلك الجماعة يغادرون المكان من تلقاء أنفسهم، وهو الذي تعايش مع تلك النوعية من الشباب الهامشي، إلا أن اقترابهم الشديد من مأواه أصبح يقلقه ويخشى من أن يستمر في تجاهلهم إلى أن يقتحموا عليه يوما بيته، أو يهجموا عليه في غيابه وساعتها لا يعلم كيف سيكون مصير زوجته وولده. وعندما يفكر في

سوء الخاتمة يصبح ذلك بمثابة الكابوس الذي لا يختلف كثيرا عن كابوس الرأس المقطوعة الذي بقي يطارده منذ طفولته الأولى.

اقترب أكثر من جماعة المتحلقين، وأصبح يخاطبهم ويهددهم وهو يجدد كذبته القديمة التي عاش بها سنوات في المنطقة والتي مفادها أنه الحارس المعتمد قانونا لذلك المشروع السكني الذي تحول إلى ما يشبه الأطلال، وقال إنه وبمكالمة بسيطة من هاتفه النقال، فإن أفراد الأمن سيطوقون المكان في أسرع وقت وساعتها ستكون عاقبتهم وخيمة وسيكشف منهم من كان في عصابة مخدرات ومن يمارس أعمالا مشبوهة.

كان بوعلام يتكلم ويهدد وهو محاط بكلبيه الوفيين اللذين سيحميانه في أسوأ الأحوال. تجاهله المتحلقون الذين وبدوا أنهم يتناوبون على سيجارة مخدرة، ودام التجاهل بعض اللحظات، غير أن أحدهم هدده بكلام نابي، ثم قال إن ما أسماها معارفه في الحكومة ستضعه عند حده، ثم صمت بشكل مفاجئ فيما جلساؤه يتناوبون على السيجارة التي شارفت على الانتهاء، ورغم البرد الشديد إلا أن بوعلام شعر برائحتها القوية التي أحس من خلالها بشعور غريب هو مزيج بين النشوة والاشمئزاز، قبل أن يتذكر حالته تلك وحالة اللامبالاة التي واجهته بها جماعة الشباب، وخشي من أن ينقلب الهدوء ذلك إلى حالة غضب لا يدري كيف ستكون عاقبتها، وبدأ شيئا فشيئا يفقد تظاهره بالقوة الذي كان يخفي ضعفا شديدا وإحساسا باليتم والغبن تمنى من خلاله أن ينخرط في حالة بكاء، وهو الإحساس الجنوني الذي انتابه وقد يئس من حياته على هذه الحال وهو لا يتمتع حتى بساعة نوم هنية مثل باقي البشر.

تسلل إليه تيار يشبه الشلل استولى على كل مفاصله وحاول جاهدا مقاومته وهو يتصنع القوة أمام الجماعة التي تناوبت على سيجارة مخدرة من الشباب الذين يبدو الضياع على هيئتهم، لكنه انتبه لحركة مفاجئة من الجماعة كسرت ذلك الروتين، واعتقد أنهم بصدد مهاجمته وكلبيه ولم يعد يجد الوقت الكافي للتصرف بطريقة مناسبة، لكن الحركة تلك كانت في اتجاه غير اتجاهه، وعادت إليه الروح عندما انتبه جيدا إلى أنهم بصدد مغادرة المكان، وتسمر في مكانه وهو يسمع أنفاس كلبيه على يمينه وعلى يساره والشباب يختفون شيئا فشيئا في حلكة الظلام، ولم يتمالك نفسه رغم عودة الاطمئنان إلى قلبه فاستسلم جالسا عند المكان الذي كان يتحلق فيه الشباب المنصرفون. أراد أن يستريح قليلا قبل أن يقرر العودة إلى مأواه القريب حيث وسيلة ووليد، وفي حلكة الليل تلك وبرد الشتاء كان يستأنس بكلبيه، وعندما هم بالوقوف عاد الرعب إلى قلبه وهو يرى شبحا واقفا في الجهة المقابلة، فأي حظ تعيس هذا الذي يطارده في تلك الليلة التي لا يعلم كيف ستكون نهايتها، فما إن انتهى من كابوس الشباب المتحلقين حتى ظهر له هذا الشبح الذي لا يعرف ما الذي جاء به إلى هذا المكان النائي؟

تشجع للذهاب إليه، فالشبح يبدو وحيدا وليس بإمكانه فعل شيء في مواجهة شخص آخر برفقة كلبين شرسين، فالذي تحدى شبابا طائشين بإمكانهم فعل أي شيء غير وارد، يمكن أن يتحدى هذا الشبح دفاعا عن حرمة المكان، مهما كان السر الذي يحمله هذا الشبح. ووسط الظلام رأى شيئا غريبا أو تهيأ له ذلك، تمكن على بعد أمتار رغم حلكة الظلمة من معرفة تفاصيل وجه الغريب الذي بدا ساكنا وهو يواجه بوعلام بكلبيه الشرسين اللذين ملآ المكان نباحا، لم يتمالك بوعلام نفسه من شدة الدهشة التي تحولت إلى صدمة عنيفة، ندوب زرقاء وبقع دم في وجه الغريب،

الذي يحمل شاربا أسود كث ينتهي بندبة على الجهة اليمنى، إنها الندوب التي رآها تلك الليلة في كابوسه الذي أفزعه، الندوب التي تحولت إلى ثقوب زرقاء جذبته بقوة غير عادية والتهمته ووجد نفسه داخل دوامة في عالم مليء بالرؤوس المقطوعة التي يحتوي كل منها على ثقوب زرقاء تحاول التهامه.

– إنه صاحب الرأس المقطوعة

أراد القول في سره، لكنه لم يستطع إكمال الفكرة، ثم أراد الكلام ليسأل الغريب عن هويته، ولم يستطع وكأن الكلام احتبس في داخله.

وبقي متجمدا، وهو يقارن بين ملامح ذلك الشخص الغريب وملامح الرأس المقطوعة مجهولة الهوية والتي وجدها ذات يوم في طريقه إلى المدرسة، وتسببت تلك الرأس في معظم المصائب التي حطمت حياته وحوّلت عرس عمره إلى مأتم حقيقي.

وكانت دهشته أكبر عندما استمر الشخص الذي أمامه ثابتا في مكانه لا يتحرك وكأنه مجرد طيف صورته له نفسه المحطمة، وقبل أن تلتهمه تلك الثقوب الزرقاء التي رآها بوضوح رغم حلكة الظلام، وبينما كان كلباه صامتين في انتظار إشارة منه، حمل بشكل مفاجئ وببرودة تامة تلك الآلة الحديدية بكل قوته وهوى بها على مؤخرة رأس الغريب، وكان يتمنى من أعماقه أن تذهب تلك الضربة القوية إلى الفراغ الهائل وأن الشخص الذي أمامه مجرد خيال، لكن الضربة أصابت الرأس، والرجل الغريب كان فعلا رجلا من لحم ودم، فهوى على الأرض وهو يصرخ:

– آآآآآآآآآآي.

ليتوقف عن الكلام وهو يتخبط، لكن بوعلام الذي كان مصدوما بما وقع، أصبح يتصرف وكأنه دخل في حالة هستيرية أو كأنه بصدد الانتقام من كل المصائب التي حلت به جراء تلك الرأس المقطوعة، فقد واصل الضرب على جسد الغريب بتلك الآلة الحديدية، دون أن يسمع منه صوتا واحدا، ربما لأنه فارق الحياة من الضربة الأولى.

وانتبه إلى نفسه فاكتشف أنه ارتكب جريمة قتل بشعة وترك القتيل مضرجا في دمه وانزوى عنه يفكر في عاقبة هذا الفعل الذي لم يخطط له و لم يكن يخطر له على بال وهو الذي لم يكن يقوى معها على إيذاء أحد، وترك الكلبين يحومان حول جثة القتيل مجهول الهوية والذي لم يسمع من فمه كلمة واحدة، وكأن مجرد استحضار الرأس المقطوعة كفيل بالإقدام على هذا الجرم.

ووجد بوعلام صخرة قريبة من جسد الضحية الملقى على الأرض فجلس عليها والصور تختلط في ذهنه إلى درجة لا يقوى على التفكير في شيء، وبشكل تلقائي أخرج الهاتف النقال من جيبه وهو الذي لا يستعمله إلا نادرا، ووجد نفسه يطلب رقم صديقه الذي يعتبره جزءه الإنساني الثاني، وكان الهاتف يرن في الجهة الأخرى في هذه الساعة المتأخرة، ومن الجهة الأخرى جاءه صوت يبدو يصارع النوم:

– ألوووو.. بوعلام؟

– نعم، جمال.. أنا في ورطة، إن كنت صديقي فعلا فعليك الحضور فورا، خذ سيارة طاكسي أو كلونديستان والتحق بي حالا في ضاحية

لابوانت.. لا تنس أن تنزل بعيدا عن البيت وتقطع باقي المسافة راجلا، أنا في انتظارك.

وانتبه لنفسه ليشعر من جديد بألم الجوع والبرد والبلل في ملابسه الرثة، لكنه تخلى بشكل مفاجئ عن خوفه الذي ألزمه الاختباء عند ذلك المكان وهو يسمع الحكاية من الغريبين، ثم يعيش تفاصيل بعض حياة قد تكون من حياته السابقة، وربما لهذا السبب كان الأمر يعنيه بالفعل، وقرر اقتحام مكان جلوس جمال وبوعلام، وهو لا يعلم ماذا سيكون تصرفه معهما، وقد يفعل به بوعلام ما فعله مع قتيله ولن يحتاج إلا لقليل من الوقت لدفن جثته إلى جانب الجثة الأخرى، وخرج بالفعل وهو يشعر بقوة غير عادية في مفاصله رغم البرد الشديد والجوع والبلل الذي في ملابسه الرثة، ووصل بالفعل إلى المكان الذي كانت تنبعث منه أصوات الآدميين والكلاب التي كانت معهما، لكن مفاجآته كانت كبيرة عندما وجد المكان خاليا إلا منه، رغم ما بدا له أن الأصوات كانت تنبعث من هناك قبل لحظات قليلة.

ومن شدة الخيبة سقط أرضا، وهو يتحسس المكان وسط الظلمة الحالكة، ويقف بالفعل على تراب مرتفع بطريقة غير عادية ويبدو أن جثة القتيل دفنت في هذا المكان، إنها الدليل الوحيد على أن ما عاشه قبل لحظات كان حقيقة، فأي خيط يربطه ببوعلام وكل الخيوط اشبكت في ذاكرته المتداعية لتستحيل شبكة سوداء قاتمة تصنع هذا الظلام الذي يلون الحياة والذاكرة.

– أين ذهب بوعلام الذي كنت أسمع كلامه من لحظات وكأنه صادر من عمقي؟

سأل نفسه، ولم يجد جوابا وهو يحاول العدو في كل الاتجاهات وسط حلكة الظلام والبرد الشديد. وخارت قواه من جديد بين مختلف الاتجاهات، ويئس من أن يجد سبيلا لذلك الشخص الذي لم يكن مجرد عابر، وقد أثار في أعماقه شجونا وفتح آلاما لا شفاء منها، وعندما فقد الأمل في اقتفاء أثره تمدد في بهو ذلك الخراب الهائل، واستسلم من جديد للبرد والجوع والكوابيس التي لا تنتهي، دون أن يستعيد خيط ذاكرته المفقودة مثل كومة كبيرة من الأسلاك المتداخلة، لكنها لا تكاد تلتقي ببعضها إلا لتحليله إلى متاهات لا تؤدي في النهاية إلى شيء ثابت، وحتى نقطة البداية أصبحت مطلبا لا يتحقق.

شعر بالاسترخاء يعود إلى مخيلته وأحس أنه دخل البلاهة المطلقة، وأرخى عضلات قلبه وعقله وجسده المنهك ولم يبال بالبرد الذي يكاد يجمده وهو على تلك الحال، وشيئا فشيئا دخل في دهليز مظلم من الكوابيس التي تشابهت عليه ولم يعد يدري إن كان ذلك في يقظته أم في نومه.

ارتخت كل عضلاته بشكل شبه نهائي وهو يقتحم عتبة تشبه الموت، عتبة باب كبير دفعه وأحس بنور يبهر العين والقلب ويكاد يعمي بصره، لولا أنه وضع يديه على عينيه وهو يحاول التقدم أكثر إلى ما وراء الباب، ومن شدة ذلك النور لم يعد يرى شيئا وكأن الشمس سافرت إلى ذلك

المكان أو كأنه سافر إليها فاتحا عليها بابها، لكنها لم تكن شمسا حارقة، بل فيها لمسة حنان تدغدغ ما بداخله.

وبلمسة الحنان تلك استقبله ذلك اليوم، ووجد نفسه في المكان نفسه، بناية قديمة خربة من عدة طوابق وجدرانها مثقوبة من كل جهة غير بعيد عن شاطئ البحر، وانتبه إلى أنه كان نائما وسط البهو حيث التربة المتراصة بذلك الشكل توحي بأن المكان يخفي شيئا منذ زمن ليس بالبعيد، ورغم أن معدته كانت خاوية إلا أن الدفء الذي تبعثه شمس ذلك اليوم أنساه الجوع، لكنه انتبه إلى ملابسه الرث والمبلل و لم يتمكن من تغييره لأنه لا يمتلك غيره. وتحسس وجهه ومعظم أعضاء جسده لعل الأمر يوحي له بشيء لكنه لم يذكر أي شيء إلا أطيافا وصورا متناقضة لا يدري إن كان ذلك مبعثه الكوابيس الطويلة التي عاشها عند نومته تلك أو أطياف من حياته السابقة التي لا يعرف عنها أي شيء، وحاول جاهدا أن يقبض على شيء فوق رأسه كأنه امتداد لتفكيره يعصره ويسأله عن نفسه وعن اسمه أولا لكنه لم يقبض إلا الهواء، و لم يكن الأمر يقلقه، لأن دفء الشمس غير العادي ذاك أدخل سعادة عميقة في نفسه، سعادة أدخلته أروقة من أحلام اليقظة ويتخيل نفسه ينزع كل ملابسه الرثة تلك ويدخل البحر انطلاقا من الشاطئ القريب منه، ويسبح إلى أن يصل عالما آخر، حيث لا جوع ولا بؤس وبرد ولا عراء.

وبدا أن جسده استعاد بعض الحيوية التي تجعله يتجه معاكسا للبحر، حيث البنايات المتراصة التي تظهر له كلغز يحيره، وربما أشعة الشمس

الناعمة هي التي أعادت له تلك الحيوية المفقودة فوقف على رجليه واعتدل في مشيته يريد ذلك التجمع السكاني وتأسف لأن ذاكرته خانته مرة أخرى ولا يدري أين تركها وأي سر يملؤها، وكان رجل بوجه فوسفوري أول من رأى من الناس في ذلك اليوم، وفجأة تقلب مزاجه وراودته أفكار شتى لكنها التقت حول فكرة وحيدة مفادها أن يومه ذاك الذي بدأ باللون الأزرق الدافئ يحمل بين طياته نكبة مثل السم في العسل، وحاول مرة أخرى لملمة أفكاره والعودة من جديد إلى نقطة بداية أصبح يجهلها من كثرة البدايات التي فرضها غياب الذاكرة وفي كل لحظة كان يجبر نفسه على بداية ما.

إنها النقطة المتناهية في الصغر التي آل إليها نهاره ذاك، وأصبح كمثل ثقبة سوداء في جسد الشمس التي كانت تبعث بأشعتها الدافئة ذلك اليوم، لكن تلك الثقبة مرشحة للانفجار بالفعل ولا يعلم حجم الكارثة التي تترتب عن الأمر. ولما عجز عن الإمساك بخيوط عقله وكأنه يتحسسها بالية بفعل الزمن، استسلم للامبالاة. لكن صاحب الوجه الفوسفوري الذي رآه بشكل مفاجئ وقلب كل حساباته عاد من جديد إلى مجال بصره، وبدأ يتبعه في خطاه لعل معرفته تكشف له مفاتيح كل ألغازه وتعيده إلى حياة سابقة لا يعرف عنها شيئا، ورغم أن صاحب الوجه الفوسفوري كان في اتجاه آخر ولا يظهر منه إلا القفا والظهر إلا أنه يكاد يعرفه كما يعرف نفسه، والقفا وحده كان يقول بشأنه أشياء كثيرة وكان يجذبه إليه بشكل عجيب ولا يستطيع مقاومة ذلك.

كانت الشوارع مملوءة بالناس وبالسيارات التي تمر في كل اتجاه، ولم يكن يدري أنه في قلب مدينة الجزائر، والبال مشغول بشخص واحد هو صاحب ذلك الوجه الفوسفوي الذي رآه في غير موعد وجذبه إليه كالمغناطيس يفعل مع الحديد، فربما كانت المعادن متشابهة هي التي تتجاذب بالفطرة، وربما كان المعدن واحد، وفي كل الحالات، فقد قطع وراءه الشارع تلو الآخر دون أن يشعر بالملل ولا بالتعب رغم الحالة التي كان عليها، وكان الناس ينظرون إليه كما ينظر أي واحد إلى المجنون في أية مدينة كبيرة، حيث لا يدوم الاهتمام إلا لحظات قليلة، رغم غرابة الشكل وبؤس المظهر.

شعر كأن صاحب الوجه الفوسفوري يستدرجه من أجل شيء في نفسه، ولم يكن يخشى هذا الاحتمال، وفي كل مرة كان يقترب من ذلك الشخص حتى يكاد يكلمه، يغلبه تردده ليبتعد عنه شيئا ما دون أن يختفي في مجال بصره.

وعندما وقف في شارع مليء بالأقواس ووجد ذلك الركام الهائل من الجرائد المطروحة على الطريق والمعروضة صفحاته الأولى للقراءة، فرح أشد الفرح وقد نسي قليلا صاحب الوجه الفوسفوري، وهو يكتشف معرفته للقراءة بشكل سليم، والأمل يعود إليه في استعادة ذاكرته المفقودة، ومن بين كل تلك العناوين الكثيرة التي تتنافس على الإثارة.

لفت انتباهه أكثر عنوان يتعلق برأس مفخخة أتت على عشرة قتلى وثلاثين جريحا، وتكثفت مشاعره إلى أن تحولت إلى ثقبة زرقاء في مخيلته

وقد ارتسمت فيها رأس مقطوعة مطروحة على قارعة الطريق، بتفاصيل كثيرة كأنه يراها لأول مرة، ولم يدر كم من الوقت مرّ عندما لمح مرة أخرى صاحب الوجه الفوسفوري وهو يمر في غير الاتجاه الذي كان عليه، وشعر بإبرة تمتد إلى تلافيف مخه تحاول تفجير تلك البؤرة من العُقد المتحجرة لعل الذكريات تتفجر فيه من جديد، وعاد من حيث أتى كأن صاحب الوجه الفوسفوري ذاك يستدرجه، لكن لم يخفه وقرر اقتفاء أثره، ورغم الزحمة الشديدة فلم يته عنه، وكان يراه من بعيد كما لا يرى أي شخص من عشرات الأشخاص الذين يعبرون بصره في كل حين في ذلك اليوم المشمس، ولم يشعر بأي تعب والفضول يشده لذلك الشخص الذي لا يدري أية ذكرى مخبأة في مكان ما تجمعه به.

وكان يحاول بقبضة يده دغدغة تلك البقعة الافتراضية عند قمة رأسه لعله يقبض على ذلك الصندوق الوهمي الذي يحوي كل أسرار حياته، ومنها سر صاحب الوجه الفوسفوري هذا الذي قلب يومه ولا يدري إن كان قد قلب حياته قبل ذلك وهو الذي لا يذكر شيئا عن حياته قبل تلك اللحظة.

ومع غياب الذاكرة البعيدة، بقي يعتمد على تلك القصيرة جدا، ويعجب من أن صاحب الوجه الفوسفوري الذي عكّر له صفوه، يعيده إلى الطريق التي جاء منها، وكان يراه من بعيد، أنيقا شيئا ما لكن مسحة من الحزن كانت تطبع وجهه وتظهر من مشيته. وفي لحظة تمنى لو كان هو نفسه في مثل أناقته تلك واستقامة مشيته، لكن ذلك الانطباع سرعان

ما يمحوه انطباع آخر ويرغب في أن يخنق صاحب ذلك الوجه بكلتا يديه ربما لو فعل ذلك لعادت إليه حياته السابقة التي فقدها مع ذاكرته، وربما استعاد من خلاله الشباب الذي تجاوزه وتلك الحالة التي تنعدم من خلالها الملامح ولا يدري الشخص في أي سن هو، وربما كانت الغيرة هي سبب انجذابه لذلك الشخص الذي يسميه في نفسه "صاحب الوجه الفوسفوري" مع أن لون وجهه ليس بالضرورة كذلك.

وانتابته رغبة داخلية في أن يلتحق به ويحييه باحترام، ثم يطلب منه مجالسته في مكان منزو ويتجاذب معه الحديث في أمور شتى، وسأل نفسه: "ترى لو فعلت واستجاب لطلبي، أي موضوع سأكلمه فيه؟".

استعاد بشكل مفاجئ هاجس الرؤوس المتفجرة، وخطر له أن رأسه بصدد الانفجار بدوره ليأتي على ما يحيط به، فأمسكه بقوة ربما من أجل نزع فتيل مفترض، وأصبح كمثل من أصيب بصدمة كهربائية عنيفة، نسي من خلاله ما كان يفكر فيه، لكن شيئا لا إراديا كان يدفعه نحو صاحب الوجه الفوسفوري، حيث جرى في اتجاهه يريد اللحاق به وسط الزحام الشديد وكانت بعض السيارات تمنعه من قطع الطريق في اتجاه ذلك الشخص، وفي انتظار العبور عادت إليه فكرة الكلام مع ذلك الشخص وطلب لقاءه في مكان منزو من تلك المدينة الصاخبة. وسرعان ما تصوره جالسا قبالته، وبقي الصمت سيد الموقف، وكان يتأمل ملامحه بدقة، ويحاول البحث في تفاصيلها عن الخيط الذي يؤدي به إلى فك حزمة الألغاز المتراكمة تلك، ولم يضفر بشيء، وصاحب

الوجه الفوسفوري ذاك يصرخ في وجهه ويحاول الاعتداء عليه حتى يتخلص منه باشمئزاز كبير.

وينتبه إلى أن اللقاء لم يكن إلا في خياله وصاحب ذلك الوجه كأنه يحاول التخفي بين المارة والسيارات حتى يمحي كل أثر له، ويبدو أنه فشل في ذلك كان مساره واضحا، لكن التفكير يذهب في الجهة المقابلة حيث يتحول هاجس الهرب والتخفي إلى استدراج حقيقي بدليل أنه يقترب الآن من تلك البناية المهجورة على شاطئ البحر، في وقت اختفت فيه الشمس شيئا فشيئا وتحول اليوم المشمس إلى بارد ومنذر بنزول المطر ومع تغير الجو ازدادت الحالة النفسية سوءا مع الاقتراب أكثر من تلك البناية التي تبدو جدرانها من بعيد مثقوبة من كل ناحية، ورأى صاحب الوجه الفوسفوري يقتحم تلك البناية، وسرعان ما لحقه وكأنه وجد الفرصة المناسبة للقائه على انفراد.

كان ذلك عند المدخل الجنوبي لتلك البناية التي يبدو أنها أطلال قصر مهجور عند شاطئ البحر، وقد دخل صاحب الوجه الفوسفوري من تلك الفتحة الكبيرة في الجدار واضطر للانحناء من أجل العبور إلى الداخل، وعندما رآه وقد عبر إلى المكان انتابته مشاعر متناقضة وتساءل في نفسه: "كيف لذلك الغريب معرفة المكان الذي جئت منه؟"، لكنه نسي السؤال وهو الذي كان يود الانفراد بذلك الغريب لسبب يجهله، وأسرع بدوره لاقتحام تلك الفتحة في الجدار من أجل اللحاق بالذي يسميه في أعماقه "صاحب الوجه الفوسفوري"، وعندما فعل ذلك كان يتوقع أن يجده

واقفا في قلب بهو الطابق الأرضي، وتقدم بسرعة باتجاه تلك الفتحة التي بالكاد عبرها وقلبه يكاد يتوقف من شدة الخوف والترقب، لكن مفاجأته كانت غير التي توقعها، وجد نفسه واقفا لوحده عند ذلك البهو، وأسرع في كل الاتجاهات يبحث عن صاحب الوجه الفوسفوري الذي رآه قبل قليل يدخل من تلك الفتحة، لكنه لم يعثر له على أثر، فربما كان مختبئا داخل تفاصيل ذلك الخراب، وفتّش مرارا المحيط و لم يعثر على أثر للرجل الذي حيّره، وبدأت مع مرور الوقت تتسرب إلى ذهنه قناعة مفادها أن صاحب الوجه الفوسفوري مجرد وهم تخيله في طريقه ذهابا وإيابا، وبدأ ينتبه إلى أنه متعب جدا وجائع و لم يجد أمامه ما يسد به جوعه، قطعة خبز يابسة بالكاد تمكن من كسر بعضها بأسنانه المتعبة وبيديه أحيانا وهو يجلس فوق تلك القشة التي تسرب إليه دفء ذلك اليوم المشمس، ومع مرور الوقت بدأت كومة القش الدافئة تلك تجذبه إليها إلى أن استسلم للنوم.

ومع استسلامه لنعومة القش، استسلم بالمقابل، لعالمه الداخلي الذي تختلط فيه الأحلام والكوابيس، و لم يعد يدري الفاصل بين الواقع والخيال.

كان نائما عندما امتدت إليه يد لتوقظه، فنهض مفزوعا كأنه هارب من كابوس طويل، ورغم أن الليل كان حالكا وسط برد شديد، إلا أنه تبين تفاصيل الرجل الذي وقف عند رأسه، إنه صاحب وجه فوسفوري ليس غريبا عنه، فربما رآه في أحلامه أو كوابيسه وربما كان يعرفه من قبل، و لم يكن له مجال للتفكير وصاحب الوجه الفوسفوري الذي أيقظه وقف على

بعد خطوات منه، أراد أن يسأله عن هويته لكنه لم يمهله، ورغم أنه كان منجذبا إليه بشكل غير عاد إلا أنه وجد نفسه مدفوعا لأن يصارعه.

وقف الاثنان متقابلين، يحدق كل منهما في الآخر، ولا يدري كيف أخرج من بين أكوام القش سكينا كان يخبئه، وهو يرى سكينا مماثلا في يد الرجل الذي يقابله ودون سابق إنذار بدأت تلك المعركة الدموية، كان يشعر بقوة غريبة وهو يوجه الطعنات إلى جسد الخصم، غير أنه وفي كل مرة كان يوجه فيها طعنة في موضع جسد خصمه، كان يتلقاها بدوره في المكان نفسه، لكنه لم يبال بالدم الذي يتفجر في وجهه وفي كامل جسده، وهو يواصل تلك المعركة، وكان لسبب غريب يحرص على ضرب وجه الخصم ليس ذبحا وإنما غرزا، وشيئا فشيئا بدأ جسده ينهار وهو الذي كان يصرخ بقوة كالعجل المذبوح وكان خصمه يصرخ بالطريقة نفسها وشيئا فشيئا تغلب العياء على القوة وانهار وهو يرى خصمه الذي لم يبادله كلمة واحدة و لم يطلب مبارزته، ينهار بدوره، وغاب عن الوعي وهو يشعر بآلام شديدة، ويشعر بأنه بصدد خسارة كل دم جسده وكان حينها قد نسي أمر خصمه الذي تعارك معه بتلك الطريقة، وكان ذلك آخر ما شاهد من حياته.

صفر

فتح أمين موقع قناة ومجلة "ناشيونال جيوغرافيك" وطلب مني مساعدته في كتابة تعليق صغير للصورة التي ينوي بعثها إلى الموقع في سبيل مسابقة، وبدأنا نتحدث عن أجمل الصور.

قلت له إن أجمل صورة هي تلك التي صاحبت روبورتاجي المنشور قبل سنتين تقريبا عن الغريب الذي انتحر في القصر المهجور في محطة الطاحونتين، وفاجأني بالقول إنه لا يذكر تلك الصورة ولا ذلك الروبورتاج، اعتقدت أنه يمزح لكنه أصرّ على قوله. وعندما حددت له المكان بدقة، أقسم إنه لم يره في حياته. أعدت التفكير بشكل مختلف وأنا أحاول تذكر أني عملته مع مصور آخر، لكن صورة أمين بتفاصيلها كانت

راسخة في ذهني، وكان يقسم في كل مرة إنه لم يزر ذلك المكان و لم يسمع في حياته بتلك الحادثة.

ذهبت بعدها إلى جهاز الكومبيوتر أبحث في الأرشيف عن أصل الروبورتاج المنشور و لم أوفق في البحث وقلت في نفسي لعلي محوته من الذاكرة المركزية و لم أنتبه للأمر.

ذهبت لأسأل بعض الزملاء في قاعة التحرير، واتفق الجميع على أنهم لم يسمعوا بتلك الحادثة و لم يقرؤوا ذلك الروبورتاج ولو قرؤوه لما نسوه بهذا الشكل. عند ذلك الحد بدأ يقيني يتحول إلى شك، ورحت أصبّر نفسي بالقول إني سأجد الدليل القاطع بالبحث في أرشيف الجريدة، بحثت أولا في الأرشيف الإلكتروني من خلال الموقع لكنني لم أفلح وتذكرت أن الموقع كان معطلا لوقت طويل وربما صدر الروبورتاج في فترة عطلته، لاتجه إلى البحث في الأرشيف الورقي، ورحت أقلب الأعداد الكثيرة وكلما أعجز عن تحديد التاريخ وأنا أجرب تواريخ مختلفة حتى يتسلل اليأس أكثر فأكثر إلى نفسي.

أصبحت كالغريق الذي يبحث عن أية قشة يتمسك بها، وخطر لي الذهاب إلى خراب القصر المهجور في منطقة الطاحونتين، وكانت مفاجأتي أني وجدت تفاصيل المكان بالدقة التي أستعيدها من ذاكرتي وعاد إليّ الأمل بعد يأس، وعندما سألت بعض الشباب هناك هل يذكرون تلك الجريمة التي احتلت مساحات واسعة من الصحافة المكتوبة قبل حوالي سنتين، نفى الجميع أن يكون الأمر حدث، إذ كيف لا يذكرون

الجريمة لو وقعت وهم من أبناء الحومة، وانتكست حالتي النفسية وكدت أفقد عقلي، لأتوجه بعدها إلى مقبرة القطار حتى أقف عند القبر المكتوب على شاهده عبارة "قبر رجل مجهول"، وكانت صدمتي أكبر عندما لم أعثر على ذلك القبر مع أني كنت حاضرا عند دفن الميت الذي بداخله، وسألت حارس المقبرة عن مصير "قبر الرجل المجهول" الذي كان في ذلك المكان، فقال إنه يعمل في المقبرة منذ ثلاثين سنة لكنه أكد ألا وجود للقبر المفترض، ولم يناقشني أكثر وكان يحمل فأسا ومجرفة ويبدو أنه يستعد لحفر قبر جديد.

أصبحت كمن أصيب بشلل وأحسست بعرق بارد ينساب من كامل جسدي وبطعم مرّ في حلقي، ولم أعد أدري إن كنت في الحقيقة أم أعيش تفاصيل كابوس لا أعلم متى سأستفيق منه، وربما كانت الثقوب الزرقاء التي اعتقدت أني رأيتها في وجه الميت المفترض مجرد ثقوب وهمية داخل تفكيري المتعب.

تمت، الرغاية (الجزائر العاصمة) 21 مارس 2012